

# المسلسل تشرقون

والتاريخ الإسلامي

د. على حسني الخريوطى



رَفِعٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْجَنْبَرِي  
أَسْلَمَ اللَّهُ الْفَزُورَكَسَن

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

# تاریخ المصرّیین

رفع

جبن الرَّحْمَنِ الْجَنَّى  
الْسَّنَنُ لِلَّهِ الْفَرْوَانُ  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

رئيس التحرير  
د. عبد العظيم رمضان

رَفِعٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَخْرَيِّ  
أُسْكَنَ لِلَّهِ الْفَزُورَكَسِّ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

الإخراج الفني : محمد قطب

الغلاف : أسامة سعيد

رُفَعَ

جَبَلُ الرَّجُلِ الْجَنْوِيِّ  
الْمُسْكَنُ لِلَّهِ الْغَنِيِّ  
www.moswarat.com

# المُسْتَشْرِقُونَ والتاريخ الإسلامي

د. على هنفي المزبوطلى



الطبعة المصرية المسماة للكتاب

١٩٨٨

رَفِعٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَخْرَيِّ  
أَسْكَنَهُ اللَّهُ الْفَرْوَانَ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

# قدمة

يسرنى أن أقدم إلى القارئ الكريم كتاباً رائعاً فى مادة بحثه ، وهو : «المستشرقون والتاريخ الإسلامي» ، للأستاذ الدكتور على حسنى الخربوطلى . وقد لعب المستشرقون دوراً هاماً فى تاريخ بلادنا ، وخاصة التاريخ الحضارى ، وهم يعتبرونه ركناً أساسياً فى دراسة أدبياتنا ولغتنا وعلومنا . ويرجع إليهم الفضل فى إبراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا ، وقد أوضحوا أن الحضارة الإسلامية ليست تراث جنس واحد أو أمة واحدة من الأمم ، وإنما هو تراث جميع الأمم التى اعتنقت الإسلام ، وعن هذه الأمم تلقى الغرب مبادئ النهضة فى العصور الوسطى .

ولهذا السبب حظى المستشرقون منذ زمن باهتمام الباحثين المصريين والعرب ، مثل الأستاذ عباس محمود العقاد ، ومحمد عبد الغنى حسنى ، ونجيب العقيقى ، واسحق موسى الحسينى ، ولكن اهتماماتهم انصببتا على تفنييد آراء المستشرقين الذين يرونها ماسة بالاسلام والشعوب الإسلامية ، وأما على نشاط هؤلاء المستشرقين العلمى . ولكن الكتاب الذى بين أيدينا يركز على جانب واحد من الاستشراف ، وهو الاستشراف فى مجالات التاريخ الإسلامي .

ومن المعروف أن تاريخ مصر هو جزء لا يتجزأ من التاريخ الاسلامي ، ومن هنا فقد شغلت مصر جانبا هاما من اهتمامات المستشرقين ، فتوارد الكثيرون عليها ، خصوصاً منsince الحملة الفرنسية على مصر ، التي اصطحببت معها عدداً كبيراً من العلماء المستشرقين المتخصصين في كافة فروع المعرفة ، ثم في عهد محمد على الذي توافد فيه على مصر عدد كبير من المستشرقين . ومن هنا كان طبيعياً أن يهتم الكتاب بالاستشراق في تاريخ مصر في إطار اهتمامه بالتاريخ الاسلامي العام .

مؤلف الكتاب هو الأستاذ الدكتور على حسني الخربوطي ، أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية البنات بجامعة عين شمس ، والذي قدم للمكتبة العربية عدداً هاماً من الأعمال العلمية في مجال تخصصه . وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام ١٩٧٠ ، وصدرت عن المجلس الأعلى للمشروع الإسلامي بالقاهرة ، ونفدت هذه الطبعة تماماً ، ولم يتبق منها إلا نسخة وحيدة هي التي استعنا بها في إصدار هذه الطبعة الجديدة ، خدمة لجمهور الباحثين والقراء .

وتميزت هذه الطبعة الجديدة من الكتاب بخلوها من الأخطاء القليلة التي شابت الطبعة الأولى ، بعد أن تولى الدكتور الخربوطي تصويبها ، كما تخلص من المصطلحات التي كانت تناسب الطبعة الأولى ، مثل استبداله اسم مصر باسم الجمهورية العربية المتحدة بعد أن غيرت مصر اسمها إلى جمهورية مصر العربية .

وأمل أن يحظى هذا الكتاب القيم بما يستحقه من تقدير واهتمام الدوائر العلمية والقراء .

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رهضان

## مقدمة

حركة الاستشراق ، حركة علمية قديمة يرجع تاريخها الى أكثر من ألف سنة ، ولا تزال قائمة حتى اليوم . وهى حركة واسعة النطاق ، متعددة الجوانب ، متشابكة الأطراف . وقد تناول المستشرقون جميع الدراسات الشرقية بصفة عامة ، والدراسات العربية الاسلامية بصفة خاصة . ورغم كثرة عدد المستشرقين . وتنوع جهودهم العلمية ، ونشرهم العديد من الابحاث ، ورغم اثر الاستشراق فى الفكر العربى ، فان الكتب العربية التى تدرس حركة الاستشراق وجهود المستشرقين ، لا زالت قليلة الى حد كبير . اذ تتصف دراسة هذا الموضوع الح邈 بالصعوبة والتعقيد والتشابك .

واتجهت الكتب القليلة التى تناولت الاستشراق والمستشرقين اتجاهين متميزين : فبعض هذه الكتب تعدد آراء المستشرقين التى أساءت الى الاسلام وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام والحضارة الاسلامية ، ثم تقوم بتنفيذ هذه الاراء ، ثم بالتعبير عن وجهة النظر الاسلامية . وأبرز هذا النوع من الكتب ، كتاب ( حقائق الاسلام

وأباطيل خصوصه ) للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ، وكتاب ( الاسلام بين الانصاف والمحود ) للأستاذ محمد عبد الغنى حسین ، وكتاب ( الاسلام والمستشرقون ) للأستاذ زكريا هاشم زكريا .

أما النوع الثاني من هذه الكتب ، فهى تعدد لـنا أسماء المستشرقين وذكر مؤلفاتهم وأبحاثهم فى جميع المجالات الانسانية والعلمية ، من أدب وفلسفة وتاريخ وآثار وطب وهندسة ، وغير ذلك من فروع المعرفة ، كما تذكر الجامعات التى تهتم بالاستشراق وتعدد كراسى الأستاذية . ومن أبرز هذا النوع من الكتب ، كتاب ( المستشرقون ) للأستاذ نجيب العقيقى ، وكتاب ( الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الالمانية ) للمستشرق الالمانى المعاصر ( بارت ) ، وكتاب ( علماء المشرقيات فى انجلترا ) للدكتور اسحق موسى الحسينى .

وكتابنا هذا يختلف فى موضوعه وشخصه واهتماماته تماما عن الكتب السابق الاشارة إليها ، وهى كتب ذات قيمة علمية كبيرة وتسنحق التقدير . فقد آثرنا أن نركز الدراسة فى جانب واحد من الاستشراق ، ونتعمق فى دراسته ، ونلم بجميع أطراقه ، وهو الاستشراق فى مجالات التاريخ الاسلامى ، وهى المادة التى تخصصنا فيها ووهبناها حياتنا وجهودنا واهتمامنا . ولذا نستطيع أن نقول - باطمئنان - ان كتابنا هذا هو الوحيد الذى يختص بدراسة هذا الموضوع الحيوى الهام على أساس علمى منهجى .

وقد بدأنا دراستنا الجديدة هذه بتحديد لمفهوم الشرق ، فقد تغير مفهومه الجغرافى والحضارى على مر العصور التاريخية ، كما قمنا بتعريف ( المستشرق ) تعريفا متميزا ، وذكرنا الشروط الواجب توافرها فيمن يشارك فى حركة الاستشراق .

وفي الفصل الثاني ، تتبعنا مراحل الاستشراق في التاريخ الإسلامي عبر عصور التاريخ المختلفة ووصلنا إلى نتائج جديدة في تحديد نقطة بداية وانطلاق الاستشراق ، ثم درسنا صور الاستشراق المختلفة في العصور الوسطى ، حتى وصلنا إلى الاستشراق في بداية العصور الحديثة ، ودرسنا الاستشراق في العالم العربي والإسلامي في العصر العثماني ، ثم في التاريخين الحديث والمعاصر ، وتحدثنا عن المستقبل الذي ينتظر حركة الاستشراق .

وفي الفصل الثالث ، تحدثنا ببساطة عن دوافع الاستشراق ، وركزناها في ثلاثة دوافع : دينية ، واستعمارية ، وعلمية . ودرسنا عوامل اختلاف هذه الدوافع ، والظروف المحيطة بها ، وعقدنا مقارنة بينها ، وأشارنا إلى موقف العرب والمسلمين من الاستشراق بتصوره المختلفة ، كما تحدثنا عن أبرز المستشرقين في كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة .

وقدمنا في الفصل الرابع بتصنيف للمستشرقين ، فليس كل المستشرقين سواء في أهدافهم واتجاهاتهم ، وميولهم . فوجدنا فئة من المستشرقين أنصفت الإسلام والرسول والتاريخ العربي والإسلامي ، وقدمنا لها أبحاثا ذات قيمة علمية كبيرة ورأينا فئة ثانية ، تعمدت الاساءة إلى تاريخنا وحضارتنا ، وإن كانت قد قدمت - في نفس الوقت - إلى مكتباتنا العربية أبحاثا هامة . أما الفئة الثالثة من المستشرقين فقد وقعت في الزلل والخطأ أيضا ، ولكن بدون قصد أو عمد ، نتيجة جهل أو سوء فهم أو قصور في الدراسة . وقد فلسفنا اتجاهات هذه الفئات الثلاث ، وأشارنا إلى أمثلة عديدة ، تصور جميع الاتجاهات .

وفي الفصل الخامس ، والأخير ، قمنا بتقويم لجهود المستشرقين في دراسة التاريخ الإسلامي ، فتتحدثنا عن المزايا والصفات التي اتصف بها المستشرقون ومميزات أبحاثهم . ثم درسنا جهود المستشرقين في الاهتمام بالتراث الإسلامي والعربي ، ثم تحدثنا عن اهتمامات المستشرقين في إنشاء المطبع واصدار المجلات العلمية وعقد المؤتمرات . ثم خصصنا الحديث عن دائرة المعارف الإسلامية . وفي الختام تساءلنا عن موقف الباحثين العرب في المستقبل من أبحاث المستشرقين ومدى استفادةتهم منها .

هذا وقد لاحظنا أن الكتب التي تناولت الاستشراق والمستشرقين ، تأرجحت بين مواقفين متناقضتين . في بعض هذه الكتب تحاملت على أبحاث المستشرقين تحاملاً شديداً ، واعتبرتهم رسلاً للاستعمار وصوراً للغزو الاستعماري الفكري والحضاري ، كما اعتبرت المستشرقين جميعاً أعداء للإسلام والحضارة العربية . ثم نجد كتاباً آخر تمحضت للاستشراق ، وغالب في مدح المستشرقين ووضعتهم فوق قمة الفكر العربي وجعلتهم مبعوثي العناية الإلهية للاهتمام بتراثنا العربي والإسلامي .

ولكننا آثرنا – في كتابنا هذا – انتهاج سياسة الحياد الإيجابي العلمي ، فأعطينا ما لقيصر إلى قيصر ، وما لله إلى الله . وكان هدفنا دائماً مد القاريء العربي بصورة علمية دقيقة واقعية عن المستشرقين في التاريخ الإسلامي ، وعن جهودهم ، ودراويفهم ، واتجاهاتهم ، وقيمة أبحاثهم ، والنتائج التي وصلوا إليها . كما اهتممنا بدراسة مستقبل الاستشراق في مجالات التاريخ الإسلامي .

ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا في هذه الدراسة الجديدة ، وأرجو أن تكون فاتحة للمزيد من الدراسات العلمية في تاريخ الاستشراق ، والله عز وجل ولِي التوفيق .

المؤلف

## تعريف بالمستشرق

ظهرت كتب قليلة تتحدث عن المستشرقين ، وتبهر جهودهم في مجالات الدراسات الإسلامية والعربية . ولكن هذه الكتب رغم قيمتها العلمية ، ورغم تعدد جوانب دراستها ، إلا أنها لا تقدم للقارئ تعريفاً ثابتاً محدداً للمستشرق ، فيظل بذلك الفراغ قائماً ، وفي حاجة إلى المزيد من الجهد لنصل إلى التعريف بالمستشرق ، وهذا الفصل يسلط الأضواء على الاستشراق ، ويجلو الحقيقة التي لا زالت غامضة غير محددة .

مفهوم كلمة شرق :

عرف المفكر الألماني المعاصر ( رودي بارت ) ( ١ ) الاستشراق فقال : « كلمة أستشراق مشتقة من كلمة ( شرق ) ، وكلمة شرق

( ١ ) بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ( ترجمة الدكتور مصطفى ماهر ) ص ١١ ( طبعة دار الكتاب العربي ) .

تعنى مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق ، أو علم العالم الشرقي » . ولكن ( بارت ) بعد ذلك يجد نفسه في حيرة ، فيتسائل : ما معنى كلمة ( شرق ) ؟ فان مفهوم هذه الكلمة يتغير تبعا لاختلاف المكان ، وتبعدا لتغير الأزمان . فالشرق يختلف بالنسبة للياباني أو العربي أو الألماني أو الانجليزى أو الأمريكى . والشرق يختلف بالنسبة لأهالى العصور القديمة والوسطى أو للبشر فى تاريخنا الحديث والمعاصر ، وخاصة بعد اكتشاف الأمريكتين . فقد كان البحر المتوسط فى العصور الوسطى هو مركز الحياة فى العالم ، وكان هذا المركز هو الذى يحدد مفهوم كلمتى ( شرق ) و ( غرب ) ، ثم انتقل من مركز الأحداث بعد نهاية هذه العصور الوسيطة الى شمال غرب أوروبا ، ثم اتسعت حدود العالم بعد قيام حضارات كثيرة راقية فى القارتين الأمريكتين ، وأدى هذا الاتساع الجغرافى والحضارى الى تغير مضمون ومفهوم ( الشرق ) .

ولذا فتحديد أبعاد ( الشرق ) لا يزال غامضا وغير ثابت أو محدد . ولينا أن نتسائل هل نقصد بكلمة ( الشرق ) مفهوما جغرافيا ، أم حضاريا ، أم هل هناك حدود جغرافية واضحة ثابتة يمكن أن تضم أطراف الشرق ، أم أن كلمة ( شرق ) إنما تعبر عن صورة حضارية وأسلوب حياة له مميزاته وخصائصه التى تميزه عن غيره ؟

لقد رأى كثير من المفكرين أن البيئة الطبيعية والأحوال الجغرافية تؤثر فى حياة الأمم وطبائعها ، حتى أن البعض ذهب الى أن ( الأمة ) وليدة البيئة الجغرافية . ومن هؤلاء المفكرين ( مونتسكيو ) فى كتابه ( روح القوانين ) ، فقد ذهب الى أن البيئة تؤثر فى أخلاق الأمة وسجراها تأثيرا كبيرا ، وحاول أن يعلل قيام النظم الديموقратية أو النظم الاستبدادية بالأحوال الطبيعية . ولكن فات

( مونتسكيو ) أن البيئة الجغرافية تعطى امكانيات عديدة ، ولكنها لا تتحتم أهرا من الأمور ، وأن مبلغ استفادة الشعوب من هذه الامكانيات يختلف باختلاف أدوار التاريخ ومستوى الحضارة وخصائصها ( ١ ) .

وقد حاول البعض أن يوجدوا روابط سياسية وحضارية مستندة إلى روابط جغرافية ، مثل الرابطة الشرقية ، ورابطة البحر المتوسط . ولكننا لا يمكننا أن نخضع مثل هذه الروابط لوحدة جغرافية أو إقليمية . إن ( الرابطة الشرقية ) ظهرت في يوم من الأيام ، حينما أصبح الشرق معرضًا لأطماع الدول الاستعمارية الغربية ، ورأى أبناء الشرق أن يتكاتفوا ويتقاربوا لمواجهة هذه الأطماع السياسية . كما أن الشرقيين أدركوا أيضًا أنهم أهل الحضارة القديمة ، وأن بلادهم كانت قلب العالم القديم ، وأن بينهم نزلت الأديان السماوية ، ولكن لمعان الشرق القديم قد انطفأ ، وخفت أنوار الحضارة القديمة والمجد السالف ، وأصبح الشرق مجالًا لأطماع الطامعين من المستعمرين . وبذلك تكون هذه ( الرابطة الشرقية ) المقترحة هي نتيجة ظروف طارئة ذات طابع سياسي .

كما دعا الفرنسيون يوما إلى ( رابطة البحر المتوسط ) ، وزعموا أن أهالي الأقاليم المطلة على هذا البحر ذات حضارة وثقافة من لون خاص وطابع مميز ، وكان من أهداف الفرنسيين شد أبناء سوريا ولبنان والمغرب العربي إلى فرنسا ، وتوسيق الصناعات السياسية بين هؤلاء العرب وفرنسا . حقا كانت سواحل البحر المتوسط في عهد من عهد التاريخ المركز الوحيد للحضارة البشرية ،

---

( ١ ) انظر كتابنا ( القومية العربية من الفجر إلى الظهر ) ص ٢٤ ( طبعة الحلبي سنة ١٩٥٩ ) .

ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد انتشرت الحضارة أولاً إلى شمال أوروبا ، ثم إلى الأمريكتين ، وأصبحت الحضارة غربية ، ثم أوروبية أو أمريكية ، ولم يعد للبحر المتوسط ميزة عامة أو طابع مميز (١) .

وتعرضت لفظة (الشرق) في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتأثير كبير في معناها ومدلولها ، إذ اتسع مضمونها . فقد انطلق الفاتحون العرب من شبه الجزيرة العربية ، لا إلى الشمال وإلى الشرق فحسب ، بل إلى الغرب أيضاً ، ونجحوا في فتح مصر وشمال إفريقية حتى وصلوا إلى المحيط الأطلسي ، وهو الحد الغربي للعالم القديم حينئذ ، أي أن العرب قد تجاوزوا شرق العالم ، ووصلوا إلى غربه . وتغيرت أوضاع المغرب العربي ، فقد انتشر فيه الإسلام ، والعروبة ، والحضارة الإسلامية ، والنظم العربية . وأصبح أهالي المغرب ، عرباً ، وعمرقيين ، ولم يعودوا كما كانوا مغاربة أو سكاناً للمغرب ، حيث الحدود الغربية للعالم حينئذ ، وحيث تغرب الشمس كما يعتقدون .

وهنا يجد المفكر الألماني المعاصر (بارت) (٢) نفسه في حيرة شديدة ، فيقول : ومنذ الفتح العربي تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقية ضمن الشرق ، ويختص الاستشراق حتى بشمال غرب إفريقية الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس ، وإن كان اسمه - الاستشراق - يفترض أنه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها .

وفي نهاية الأمر ، لا يصل (بارت) إلى تحديد ثابت نهائى

---

(١) من محاضرات المرحوم الأستاذ ساطع الحصري بمعهد البحوث والدراسات العربية .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية ص ١٢ .

لمفهوم كلمة (شرق) ، ويعرف هو بذلك ، ويرى الأفضل له أن يوجه اهتمامه إلى تعريف (الاستشراق) ، فيقول (١) : « ومهما يكن من أمر ، فإن اسم الشرق لا يبين بوضوح مستقيمه المقصود منه بالضبط ، والمهم هو الموضوع ذاته ، أي الاستشراق » .

ان تحديد (العالم الشرقي) يشبه في صعوبة تحديده (العالم العربي) . فقد اختلف تحديد أبعاد (العالم العربي) تبعاً لاختلاف العصور والأزمان . وربما لو سلطنا الأضواء الآن على مفهوم (العالم العربي) على مر العصور التاريخية ، لامكنا أن نفهم أبعاد مفهوم (العالم الشرقي) ، وخاصة أن العرب يمثلون جانباً كبيراً من أهالي الشرق ، وقد ارتبط تاريخ العرب بتاريخ الشرق قرونًا طويلة .

ولذا نتساءل : من هم العرب ؟ وعلى أي أساس تطلق عليهم صفة العرب ؟ أعلى أساس انحدارهم من جنس واحد ؟ أم على أساس اللغة ؟ أم على أساس الحضارة الواحدة والتکوين الفعلى المتشابه ، والنظم الاجتماعية المشتركة ؟

في العصور السابقة للإسلام ، كان يقطن في الجزيرة فريقيان متميزان ، البدو والحضر ، وكانت كلمة (عربي) بمعناها الاتنوغرافي الضيق تطلق على البدو . ثم ظهر الإسلام ، وسار انتشار اللغة العربية جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام . وبعد مائة سنة من ظهور الإسلام قامت امبراطورية عربية إسلامية تمتد من شبه جزيرة آسيا ، في الغرب إلى شرق البحر المتوسط ثم إلى شواطئ السندي وبحر الخزر في الشرق . وفي القرون التي أعقبت ذلك كان الطرفان الشرقي والعربي لهذه الامبراطورية يتراوحان بين مد وجزر .

---

(١) المصدر السابق .

ولكن الدعوة الى الاسلام والدعوة الى العروبة لم يكونا متنصلين ، فقد تقدم الاسلام مسافات بعيدة الى الامام ، واستطاع أن يتخطى الحواجز التي وقفت دونها العروبة .

أصبحت هناك خمس مجموعات من الأقطار ، سار في بعضها الاسلام والعروبة في طريق واحد ، بينما اختلفت الوضاع في الأقطار الأخرى .

**أولاً** : وهناك أقطار فتحها العرب المسلمين ، فانتصرت فيها اللغة العربية ، وتغلبت على اللغات المحلية الأخرى ، وأصبح الاسلام هو دين الأغلبية العظمى ، وهي الأقطار التي تكون العالم العربي المعاصر .

**ثانياً** : وهناك أقطار أخرى انتشر الاسلام فيها دون اللغة العربية ، مثل ايران وتركيا ، فهي دول اسلامية ولم يسمت دولاً عربية .

**ثالثاً** : وهناك أقطار ثالثة انحصر عندها الاسلام والعروبة ، مثل الاندلس وجزيرة صقلية .

**رابعاً** : وهناك أقطار أخرى انتشر بها الاسلام نتيجة فتوح اسلامية غير عربية ، مثل فتوح الاتراك السلاجقة في الاناضول ، وفتح الاتراك العثمانيين في البلقان ، وفتح المغول في الهند .

**خامسًا** : أقطار انتشر بها الاسلام عن طريق غير الفتح العسكري ، بل نتيجة جهود تجار وواعظ ، كما في أندونيسيا ومالزيا ، وهي أيضاً أقطار اسلامية وغير عربية (١) .

أما في تاريخنا المعاصر ، فإن كل من ينتمي إلى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية فهو عربي ، مهما كان اسم الدولة التي يحمل

---

(١) انظر محاضرات المرحوم الأستاذ ساطع المصري .

جنسيتها ، ومهما كانت الديانة التي يدين بها والمذهب الذي ينتمي اليه ، ومهما كان أصله أو نسبه .

ويرى المؤرخ العربي المعاصر المرحوم الأستاذ شفيق غربال (١) أن هناك أحداثاً تاريخية طارئة كان من آثارها شيطر العالم الإسلامي إلى (شرق أقصى) يقع في شرق العراق ، والى (وسط) يمتد من العراق إلى مصر ، والى (غرب) يقع في غرب مصر . أما هذه الأحداث التاريخية الطارئة ، فهي الحروب الصليبية ، واتساعات التتار في الشرق ، واجلاء المسلمين عن الأندلس ، ثم هاجمة الغرب ، ثم حركات التطويق البحري الكبيرة التي ملكت الأوروبية آسيا والأقاليم العربية .

### المفهوم الحضاري للشرق :

وبعد . . . . . فما هو مفهوم كلمة (شرق) ؟ ونحن نرى أن هذا المفهوم لا يخضع لعامل جغرافي أو إقليمي ، ونرى أن الحضارة هي أساس المضمون والمدلول . فللشرق حضارته ذات الطابع المتميز الخاص ، مما يختلف كثيراً عن ألوان الحضارات الأخرى . إن من يرحل بين الدول العربية ، والدول الإسلامية ، ودول الشرق الأقصى ، ودول جنوب آسيا ، يجد تقاربًا كبيرًا بين المجموعات البشرية الكثيرة التي تعيش في هذه الأراضي الشاسعة ، قد يختلفون في صفاتهم الجنسية بحكم البيئة الجغرافية ، وفي لغاتهم وأديانهم ، ولكن أساليب الحياة ، والنظرية إلى الحياة ، والأفكار ، قد تكون متقاربة .

---

(١) في مقال له بمجلة الهلال في أول يناير ١٩٥٥ بعنوان ( الجامعة الإسلامية واتحاد العرب ) .

وهذا التقارب في رأينا يرجع إلى وحدة التاريخ المشترك ،  
ولا نقصد الوحدة الكاملة . فقد ظل العالم قرونا طويلا سحيقة  
يعيش في رقعة صغيرة من الأرض ، يعيشون في وسط وجنوب  
وغرب آسيا ، وفي شمال أفريقيا ، وفي جنوب أوروبا . فلم تكن  
الأمريكتان أو استراليا قد تم اكتشافهما بعد ، كما كان شمال  
أوروبا ووسط وجنوب أفريقيا غير عاورة بالسكان . ولقد عاشت  
الأقوام في هذه الرقعة المحدودة من العالم دهورا طويلا معا ، وتفاعلوا  
وامتزجوا حضاريا وفكريا واقتصاديا وسياسيا ، مما أوجد نوعا من  
التقارب والتجانس .

إن وحدة التاريخ ، أو الوحدة النسبية ، تولد تقاربها في  
العواطف والنزاعات ، وتمثلا في الأفكار والتقاليد والعادات ،  
والذكريات التاريخية تقرب النفوس والأفكار وتكون بينها نوعا من  
القرابة المعنوية وأن هذه الوحدة التاريخية النسبية بين أبناء الشرق  
هي التي أعطتهم لونا وطابعا حضاريا واحدا .

لقد كانت الحضارات في العالم قبل الفتوحات العربية  
الإسلامية متقاربة إلى حد كبير ، فقد اقتبس الأغريق كثيرا من  
الأن حضارتهم من المصريين والفينيقيين والكلدائيين والفرس .  
وعرف الرومان الحياة المدنية خلال صراعهم مع القرطاجيين . وحينما  
أصبحت الدولتان الفارسية والرومانية أكبر دول العالم القديم ،  
حدث امتزاج حضاري بين الدولتين رغم عدائهما وتنافسيهما في  
مجالات السياسة ، وكان الصدام العربي من عوامل الاتصال  
الحضاري بين الفرس والروم ، وقد غزت كل دولة أراضي الدولة  
الأخرى .

ثم بدأت الفتوحات العربية ، وحمل العرب الفاتحون الحضارة

الظاهرة التي أتى بها الدين الإسلامي ، واتصلت الحضارة الإسلامية بالحضارات العالمية الموجودة ، وحدث فعلاً امتراج حضاري كبير .

لقد كان الطريق ممهداً أمام امتراج الحضارات ، فقد كان العرب عند الفتح أميون فاضطروا إلى الاعتماد على غيرهم في الادارة والكتابة والشئون المالية ، وسرعان ما تأثروا بحضارة الهلال الخصيب ، وأصبحت الحضارة العربية مزيجاً من حضارات مختلفة (١) .

لم يجد العرب الفاتحون بأساً من اقتباس الحضارات المختلفة التي وجدوها في الأقطار التي فتحوها ، ولكن العرب - وهم العنصر القوى الفاتح - عدلوا هذه الحضارات بما يلائم الدين الإسلامي ، وبما يتفق والعقلية والتقاليد العربية . وشمل اقتباس العرب من الفرس والروم جميع التواحي ، سواء كان ذلك في نظم الحكم والسياسة ، أو في الحرف والمهن ، أو في اللغة والأداب ، بل في وسائل الترف والزينة أيضاً (٢) .

ولعبت اللغة العربية دوراً كبيراً في مزج الحضارات والعنابر المتنافرة في الأقطار المفتوحة . فقد أدى تعميم استخدام اللغة العربية في هذه الأقطار إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجاً قوياً في الحياة القومية التي كان يحييها العنصر العربي الحاكم (٣) .

وأدى انتشار الإسلام أيضاً إلى امتراج واندماج العرب بالعنابر الأخرى في الأقطار المفتوحة . فقد منح الإسلام العناصر المختلفة

(١) الدكتور عبد العزيز الدورى : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص ٦ - ٧ .

(٢) انظر كتابنا ( العرب والحضارة ) ص ٧٥ تجد كثيراً من التفاصيل .

(٣) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ( ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وأخرين ) ص ٦٨ .

التي كانت تسكن هذه الأقطار ما تحتاجه من مثل العليا التي اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله . وقد منحت هذه المثل العليا أهالي الأقطار مشاعر مشتركة وآمالاً واحدة وايماناً عميقاً ، وكانت الدولة التي اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية (١) .

وكان المفتوح العربية طابع خاص لا نجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد الحرب ، فالبرابرية الذين استولوا على العالم الروماني ، والترك والمغول وغيرهم ، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة ، إلا أنهم لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها . ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وأقبل أهالي الأقطار المفتوحة على هذه الحضارة ، ولذا حل النفوذ العربي بها ثابتنا (٢) .

أصبحت الحضارة العربية الإسلامية تسود معظم أرجاء العالم القديم طوال قرون كثيرة ، فقد امتدت في وسط آسيا ، وشمال الهند ، وغرب وجنوب آسيا ، وشمال أفريقيا ، وجنوب غرب أوروبا ، وجميع جزر البحر المتوسط . مما أدى إلى وحدة حضارية عالمية ، منحت هذه الأراضي الشاسعة لوناً حضارياً متجانساً ثم تقلص نفوذ العرب السياسي عن معظم أرجاء أوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعني نهاية الحضارة العربية في أوروبا ، فقد ظلت التأثيرات العربية باقية ، واستمر الطابع العربي قائماً في كل مكان في القارة ،

(١) جريجستان لوبون : حضارة العرب ( ترجمة عادل زعيم ) ص ٧١٨ - ٧١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧١ - ١٧٢ .

وأصبحت حضارة العرب أساساً أقام الأوروبيون عليه حضارتهم  
المجديدة (١) .

لم يكن امتداد الإسلام والعروبة حركة فتوح أو غزوات ، ولم يكن لانشاء امبراطورية عربية يسودها العرب المسلمين ، وإنما كان في الواقع حركة نهضة تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً . وكان العربي الذي حمل أعباء الفتوحات ، وهاجر إلى البلاد المفتوحة شخصاً ممتازاً خيراً بالتقليد واقتباس ما يناسبه ويفيده . فكان لا يستقر إلى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطي ، ويصاهرهم . ورغم الأصل البدوي ، فقد كان يحب اللين والترف ويتدوّق الجمال ، ولذا لم يخرب العرب المدن التي فتحوها ، بل ظلت هذه المدن عامرة تنبض بالحياة والحضارة (٢) .

ومنت القرون ، وظهرت الدولة العثمانية التي نجحت في أن تمتد نفوذها إلى كثير من أقطار الشرق ، وخاصة العالم العربي الإسلامي . وقد أقام العثمانيون حكمهم على أساس لا يتدخلوا في حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، إلا بقدر ، فيما دام العرب على ولائهم وخصوصيّتهم منصرفين إلى حياتهم المألهفة ويقدّمون الأموال التي تطلب منهم ، ظلوا بآمن من سلطان الدولة ، لا تمتد إليهم أيدي عمالها . وقد حفظت هذه الطريقة للعرب قوميتهم وكيانهم وحضارتهم . ولذا فإن الوحدة الحضارية التي شهدتها الشرق ، وخاصة الشرق العربي ، قبل الفتوحات العثمانية ظلت قائمة طوال العصر العثماني الذي استمر أربعة قرون ، حتى مطلع القرن العشرين .

---

(١) انظر كتابنا (العرب في أوروبا) تجد كثيراً من التفصيلات التاريخية .

(٢) دكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤١٩ .

## من هو المستشرق؟ :

وإذا كان من العسير - كم ارأينا - وضع تحديد ثابت لمفهوم كلمة (شرق) ، فإنه من الصعب بمكان أيضا تعريف (المستشرق) تعريفا قاطعا شاملـا . ولكن يمكننا أن نقول إن «المستشرق هو عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية» . فلابد أن يتوافق فى هذا المستشرق الشروط الواجب توافقها فى العالم المتخصص المتعمق ، حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة بانتاجه العلمي . ولابد أن ينتمى هذا العالم الى الغرب ، ولو كان هذا العالم يابانيا أو أندونيسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق ، لأنـه شرقى بحكم مولده وببيئته وحضارته . وقد تكون الدراسات الشرقية التى يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفـة أو آثارا أو اقتصادـا ولكنـها ترتبط بالشرق .

وليس من الضرورى أن يرحل هذا المستشرق الى الشرق ، ليعيش فيه ، أو ليتطبع بطبعـه أو حضارـه ، فقد يقوم بدراساته فى جامعتـه الغربية ، أو فى وطنه . وان كان رحيلـه الى الشرق يجعل دراساته أكثر فائدة وأقرب الى الواقعـة والحقيقة . وليس من الضرورى أن يعتقد هذا المستشرق الاسلام أو أحد الأديان السائدة فى الشرق ، كما ليس من الضرورى أيضا أن يتحدث باللغـات الشرقـية ، وان كان الالامـ بها أو اجادـتها يعينـه كثيرـا فى دراستـه وأبحاثـه .

## المستشرقون والتاريخ الاسلامي

وحيـنا بدأ الاستشراق ، كان غالـبا هواية يهواهـا بعض الأوروبيـين الذين جذـبـهم الشرق بسـحرـه وأسرـارـه ومميـزـاتهـ الحضارـيةـ الخاصةـ . واقتـرـنـ الاستشراقـ أحيـاناـ بـحبـ الرـحلـاتـ الىـ الشرقـ ، وأصـبحـتـ كـتبـ هـؤـلـاءـ النـفـرـ منـ المـسـتـشـرـقـينـ أـقـرـبـ الىـ الـكـتبـ

وهكذا خضع تحديد مفهوم (المستشرق) لسنة الحياة والتتطور والارتقاء ، ولاختلاف ظروف الزمان والمكان ، ولتطور العلاقات الدولية ، والتقدم العلمي والحضاري ، مما يدفعنا الى دراسة المراحل المختلفة التي مر بها الاستشراق ، منذ ظهوره على المسرح العالمي ، حتى السبعينيات من القرن العشرين ، ثم القاء نظرة على مستقبل الاستشراق .

رَفِعٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَخْرَيِّ  
أَسْكَنَ اللَّهُ الْفَرْوَانَ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

# مراحل الاستشراق في التاريخ الإسلامي

## آراء حول نقطة البداية :

هناك آراء كثيرة حول البداية ونقطة الانطلاق ، فهناك من يربط بين دراسة التاريخ العربي والاسلامي في أوروبا وبداية الاطماع الاستعمارية الأوروبية في العالمين العربي والاسلامي في أواخر القرن الثامن عشر ، حينما ضعفت قبضة الدول العثمانية، وبذلت الدول الأوروبية تنظير بعين الطمع في ممتلكات ذلك «الرجل المريض » قبل أن تعلن وفاته وترث تركته .

فقد حرصت الدولة العثمانية في أول عهد حكمها للبلاد العربية والاسلامية ، على أن تسدل ستاراً كثيفاً يحجب أنظار الأوروبيين عن هذه البلاد ، حتى لا تمتد إليها أصياغ الاستعمار ، وإن كان هذا الستار قد نجح فترة طويلة في أن يحمي البلاد

العربية والاسلامية من الأطماء الاستعمارية الا انه منع اي لون من الوان الاتصال الحضاري ، الذى قد يتبع الفرصة للعلماء الأوروبيين لدراسة تاريخ الشرق وحضارته ، كما جعل العرب وال المسلمين بمعزل عن حضارة أوروبا ، وقد كانت هذه القراءة تختار عصور النهضة بعد تخليها عن طابع العصور الوسطى وحضارتها .

وهناك رأى يجعل الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ هي بداية الاستشراق الايجابي المحققى ، حينما صحب نابليون معه على ظهر أسطوله عدداً كبيراً من العلماء ، الذين تخصصوا في فروع عديدة من المعارف ، كما صحب مطبعة عربية . وقد بدأ هؤلاء العلماء الفرنسيون نشاطهم منذ اللحظة الأولى التي وطأت أقدامهم فيها مصر ، وأنتجوا انتاجاً حضارياً ضخماً ، لا يزال حتى اليوم منبعاً فكرياً ، ورغم اخفاق الحملة الفرنسية سياسياً وعسكرياً ، الا أنها نجحت حضارياً ، رغم قصر مدة بقاء الحملة في مصر وتركت الحملة بعد جلاتها عن المستشرقين في العهود التالية .

وكان رغبة كثير من الدول العربية والاسلامية في التحرر من الحكم العثماني ، دافعاً للعرب والمسلمين على المطالبة باقتباس بعض معالم الحضارة الأوروبية التي لا تختلف عقائد العرب أو تقاليدهم . فقد اتصفت فترة الحكم العثماني برکود حضاري أدى إلى جمود فكري ، فقد كان هذا الحكم العثماني نكسة شديدة أصابت الحضارة العربية بعد عهود طويلة من الازدهار الحضاري ، وكانت أوروبا في تلك العهود تعانى من ظلام الجهل والتأخر . ولذا رأى كثير من العرب والمسلمين أن يسروا في نفس الطريق الحضاري الذي سار الأوروبيون فيه قبلهم حتى

بلغوا ما وصلوا اليه من مظاهر حضارية راقية . وقد ظهر مفكرون مسلمون ، مثل جمال الدين الأفغاني . ينادون بأن اقتباس الحضارة الأوروبية هي الوسيلة المثلث لرقي العالم الإسلامي والخروج به إلى عالم النور والحضارة الزاهرة .

### البداية الحقيقة :

هذه هي بعض الآراء عن بداية الاستشراق ، ولكننا نرى أن الاستشراق قد بدأ منذ قرون كثيرة سابقة للقرن الشامن عشر . بل نرى أن الاستشراق قد أرسى قواعده منذ العصور الإسلامية المبكرة . وفي رأينا أن الاستشراق هو « اهتمام بالدراسات الشرقية » ، وقد يأخذ هذا « الاهتمام » صورة الأخذ أو العطاء . والفكرة الشائعة بين الكثرين أن الاستشراق هو أن يقدم المستشرقون انتاجهم الفكري لأبناء الشرق ، ولكننا نرى أن ذلك هو جانب واحد من الاستشراق ، ونرى أن اقدام الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية هو استشراق أيضا ، فهم يجعلون الدراسات الشرقية موضوع دراستهم واهتماماتهم والحضارة في جوهرها وحقيقة عالمية ، فهي ملك للأسرة البشرية الكبيرة جماء ، والحضارة أيضاً أخذ وعطاء ، واقتباس بعض معالم الحضارات العالمية هو في الحقيقة تجديد لدماء الحضارة المحلية ، ودامغا لها للتطور والتقدم .

وعلى هذا الأساس ، فاننا نرى - دون مبالغة - أن الاستشراق قد بدأ في أوروبا نفسها ، في العصور الوسطى الإسلامية ، حينما كان العرب المسلمون يحكمون أرجاء كثيرة في شبه جزيرة أيبيريا ( بلاد الأندلس ) ، وفي فرنسا وآيطاليا وصقلية وجزر البحر المتوسط . فقد كانت أوروبا قبل الفتوحات العربية

والاسلامية تسبح في ديار جير الظلام ، وقد بددت الحضارة العربية الاسلامية هذه الدياجير الحالكة ، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين . فقد أصبح العرب فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حملة مشاعل الثقافة والحضارة في ربع العالم أجمع ، وكانت الحضارة العربية هي أساس النهضة في أوروبا . وقد كتبت إسبانيا العربية الاسلامية صفحات من أروع صفحات تاريخ الحضارة في القارة الأوروبية في العصور الوسطى . لقد أقبل الأوروبيون ينهلون من منابع الحضارة الغربية ، وقدم طلاب العلم من كل أرجاء أوروبا على بلاد الأندلس يدرسون في جامعاتها ومعاهدها .

أفلا يمكن أن نسمى ذلك استشراقا ؟ فانما نرى أن الأوروبيين حينما أقدموا على الاقتباس من حضارة الشرق ، العربية والاسلامية ، وحينما أصبحت هذه الحضارة الشرقية هي أساس حضارة القارة الأوروبية ، أصبح الأوروبيون حينئذ مستشرقين . فقد وجد الأوروبيون في حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود ، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الأوروبية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافاتها .

وقد اتخد أقبال الأوروبيين على الاستفادة من الحضارة العربية شكلا علميا منظما ، مما يجعله استشراقا على أساس علمية ثابتة واضحة . فقد اهتمت الدول الأوروبية بارسال بعثات علمية الى بلاد الأندلس العربية لدراسة العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى ، نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الظاهرة في إنجلترا وفرنسا وهولندا وتوسكانا .

وهناك أمثلة كثيرة توضح هذا الاستشراق العلمي المنظم ، نذكر منهابعثات الثلاث التي قدمت الى الأندلس ، وأولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا . والبعثة الثانية انجلزية وعلى رأسها الأميرة ( دوبان ) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ( ويلن ) . أما البعثة الثالثة فكانت إسبانية ، وبعضها من مقاطعات ( سفوا ) و ( الباخر ) و ( ساكسونيا ) و ( الرين ) وقد بلغ عدد أفرادها ( ٢١٣ هـ - ١٢٩٣ م ) سبعمائة طالب وطالبة .

كما بعث الملك فيليب البافارى الى الخليفة الأموى بالأندلس ( هشام الأول ) يسأله السماح له بزيادة هيئة تشرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها ، ليتمكن من اقتباس المفيد من ذلك بلاده ، ووافق الخليفة على طلبه . كما بعث الملك الجermanي وفدا برئاسة وزيره الأول ( ويلميين ) ، وقد لقبه الأندلسيون ( وليم الأمين ) لأنـه كان أميناً في نقل ما رأـه من حضارة الأندلس وعظمتها الى الملك ، وحثـه على الاستمرار في اـنفاذ البعثـات العلمـية لـاقتـباس مـعـالم الحضـارة العـربـية .

وتـوالـت الـبعثـات عـلـى الأـنـدلـس ، فـأـرسـل مـلـك انـجـلـترا جـورـج الثـانـي اـبـنـه أـخـيه الـأـمـيرـة ( دـوبـانـت ) عـلـى رـأـس بـعـثـة مـن ١٨ فـتـاة مـن بـنـات الـأـمـرـاء وـالـأـعـيـان إـلـى اـشـبـيلـيـة يـرـافـقـهـنـ رـئـيـس مـوـظـفـي القـصـر الـمـلـكـي التـبـيـل ( سـفـلـيـك ) . وـقـدـمـتـ بـعـثـاتـ أـخـرى مـن فـرـنسـا وـإـيـطـالـيـا وـالـأـرـاضـى الـوـاطـئـة ، وـأـمـتـلـأـتـ بـهـمـ الـمـعـاهـدـ غـرـنـاطـة وـأـشـبـيلـيـة ( ١ ) .

( ١ ) طـهـ المـدـور : الـدـيـانـاتـ وـالـحـضـارـاتـ مـن ٧٠٠

فقد حفظ عرب الأندلس في القرن العاشر الميلادي العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان ، حتى في القسطنطينية . والي بلاد الأندلس كان يقصد الأوروبيون المتعطشون للعلم والمعرفة ، كان منهم ( جربت ) الذي أصبح بابا في سنة ٩٩٩ م باسم ( سلسستير الثاني ) . ولم يظهر في أوروبا ، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد ، عالم لم يقم بدراسة الكتب العربية . وظلت ترجمات كتب العرب ، ولا سيما الكتب العلمية ، مصدراً وحيداً تقريرياً للتدريس في جامعاتها خمس قرون أو ستة قرون (١) .

ويرى الأب ( خوان أندربيس ) أن قيام التأليف العلمي في أوروبا في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه إلى العرب ، ويرى أن روجر بيكون وفتيليون قد استفادا من بصريات أحسن بن الهيثم ، وأن ليوناردو دا فينチ أخذ عن العرب العجيز ، وأخذ أرنالدو الطب والكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوروبي من كتب العرب وخاصة الزهراوي ، كما استوحى ( كلير ) كشفه لأفلاك الكواكب الدائرية من كتاب البطروجي (٢) .

استفاد الأوروبيون من الحضارة العربية الإسلامية ، بينما لم يستفيدوا شيئاً يذكر من الحضارتين اليونانية والرومانية . أما الحضارة اليونانية فلم تكن الا عبارة عن جامعة يونانية تلقن الشعب الأغريقي العلوم الفلسفية التي تحتاج إلى عقول مؤهلة من قبل لتلقيها وتفهمها ، ولذا عجزت عن أن تصل إلى أوسع

(١) انظر كتاب حضارة العرب لجورج لجوسناف لوربيون . وكتابنا العربي في أوروبا تجد كثيراً من التفاصيل التي توضح آخر حضارة العرب في حضارة أوروبا .

(٢) بالنسبة : الفكر الأندلسي ص ٢٢٣ .

أوروبا . كما عجزت شعوب هذه القارة العاجلة عن هضم الحضارة اليونانية .

أما الرومان فقد وصفهم المؤرخ الفرنسي ( سينيه بوس ) بأنهم كانوا سواء في المشرق أو المغرب فاتحين مستعمرین لا يفكرون إلا في إقامة الأبنية الضخمة والملاءع الواسعة لاظهار قوتهم وعظمتهم للأمم الواقعية تحت استعمارهم ، ثم البحث عن منابع المياه لتنظيم وسائل الرى لأجل استثمار الأرض لمصلحتهم . ولكن عندما نريد أن نبحث في النواحي الأخرى التي يجب أن تستفيد الشعوب المستعمرة منها كالنمو الاجتماعي والارتفاع العلمي والأخلاقي ، فلا نجد إلا آثارا لا تكاد تذكر .

### استشراق من نتاج التعصب الديني :

والي جانب تلك الصورة التي رأيناها من صور الاستشراق المبكر ، نجد صورة أخرى ، تختلف كثيرا في أهدافها وأبعادها عن الصورة الأولى . فقد شهدت العصور الوسطى لونا آخر من الاستشراق ، كان من نتاج التعصب الديني الذي كان من خصائص تلك العصور الوسيطة . فقد أقبل بعض الأوروبيين على الاستشراق من أجل الكيد للإسلام والعروبة ، و كنتيجة للتعصب ضد المسلمين والعرب . وهي حركة واسعة منظمة تشبه في بعض جوانبها وأهدافها ، تيارات الشعوبية وحركات الزنادقة التي شهدتها الشرق الإسلامي في العصر العباسي الأول ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) .

وكان هذا الاستشراق الذي يصور التعصب الديني ، هو في الحقيقة صورة للعداء التقليدي الذي ساد في العصور الوسطى

بين الشرق والغرب . ويقول كرد على (١) عن هذا العداء : وأهم أسباب الجفاء بين الغربيين والشرقيين في القرون الأولى من الهجرة، كون الاسلام جاء لهدایة البشر كافة ، فأتى على الوثنية في البلاد التي انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة واليعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير . وخففت أوروبا النصرانية من تسربه إلى ربوعها ، فاتفاقت كلمة الملوك ورجال الدين على حربه ، حتى وقفت دعوته عند جزيرتي الأندلس وصقلية وما اليهما من أرض الفرنجة ، ثم نشأت الحروب الصليبية ودامت قرنين كاملين ، وقدمت الجيوش الصليبية إلى الشام ومصر ، حتى كتبت العلبة الأخيرة للإسلام في أرض الشام .

يحدد المستشرق ( رودى بارت ) (٢) بداية هذا النوع من الاستشراق بسنة ١١٤٣ م حين تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب ( بيتروس فينيرا بيليس ) رئيس دير كلونى ، ويرى ( بارت ) أن الهدف من هذا النوع من الاستشراق هو ( التبشير ) ، واقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام ، واجتذابهم إلى الدين المسيحي .

ولم تقم هذه الصورة من الاستشراق على أساس علمي منظم ، حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الاسلام وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير ، ولكن كل محاولة لتقدير هذه المصادر على نحو موضوعي نوعا ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي لل المسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير . وهكذا

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١٠ ص ٣ ( طبعة القاهرة ١٩٥٠ ) .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الالمانية ص ٦ .

كان الناس لا يولون تصديقهم الا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأى المتخد قبل ، وكانوا يتلقفون بينهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة الى النبي العربي والى شين الاسلام (١) .

ومن أفضل الكتب التي درست هذا الاستشراف النابع من التعصب الديني في العصور الوسطى ، كتاب ( الحضارة الاسلامية ) للمؤرخ الهندي المسلم ( صلاح الدين خودابخش ) والذي قمنا بترجمته الى اللغة العربية سنة ١٩٦٠ . ويرى أن هذا التعصب الديني كان من اسباب العداء التقليدي بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية . وقد أدت العلاقات المحدودة بين المسلمين والبيزنطيين في القرون الأولى من العصر الوسيط إلى أن الاسلام ظل غير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحي ، كما ظل محمد صلى الله عليه وسلم ، في الأدب الأوروبي شخصية غامضة .

ويرى ( خودابخش ) (٢) أن العامل الرئيسي في جهل المسيحيين في العصور الوسطى بالاسلام والرسوم هو سيطرة الكنيسة على أهالي العصور المظلمة ، وقد أدى انتشار الاسلام وقوته إلى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الاسلام قد أصبح خطرا على المسيحية . وكان هذا الشعور بالخطر هو الشرارة التي أشعلت النيران ، وبدأت الكنيسة الكاثوليكية نشاطها المعادى للاسلام . وكانت الكنيسة في بدانة الامر ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

(٢) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ٣٥ ( طبعة الحنفي بالقاهرة سنة ١٩٦٠ ) ، ترجمة الدكتور على حسنى الحربوطى ، وظهرت طبعته الثانية فى بيروت سنة ١٩٧٠ ( دار الثقافة ) .

تظن أن انتصار الاسلام ما هو الا سجابة عن قریب . تنقشع ، ولكنها سرعان ما أدركت أن انتصاره كان كاملا مطلقا .

وبمرور السنين ، زاد خطر المسلمين على الدول المسيحية ، وببدأ المسيحيون يبحثون حولهم عن قوة تستطيع ان تساعدهم لوقف هذا الزحف المستمر للإسلام . ونهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسلام للمسيحية ، فلم تعد تتبع سياسة الدين والتسامح . واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحيي العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور فاننا لا ندهش اذا لمسنا ما نال الاسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقدح ، وذلک نتيجة منطقية لمظروف المسائدة فى تلك العصور .

ومن سوء الحظ أيضا ، أن أقطار غرب أوروبا كانت معلوماتها الاولية عن الاسلام ، عن طريق مصادر غير صادقة ، وهى المصادر البيزنطية . فقد نظر البيزنطيون الى الاسلام نظرة عداء ، وهذا العداء يبدو منطقيا اذا تذكروا أن المسلمين قد انتزعوا من الدولة البيزنطية (أى الدولة الرومانية الشرقية) أحسن ولاياتها ، كما أن الاسلام الذى يدعو الى التوحيد يعارض عقيدة البيزنطيين التى تدعوا الى التثليث . ولذا لا غرو ان اعتبر البيزنطيون الاسلام خطرًا على عقيدتهم . ولكن الدولة البيزنطية كانت تعانى من الضعف السياسي ما جعلها عاجزة عن الوقوف فى وجه المسلمين ، فوجئت كل همها الى تجربة عقیدتهم (١) .

### تطور الاستشراق فى العصور الوسطى :

أدى قيام الحروب الصليبية الى ازدياد روح التعصب الدينى وانعكست هذه الروح على (الاستشراق) . وقد بدأ المجاهدون

(١) خودابخش : المضارة الاسلامية ص ٣٩ .

للاسلام من الاوروبيين يتعلمون اللغة العربية ، لا حبا فيها ، ولكن ليتخدوها وسيلة الى فهم القرآن ، وسلاحا فى مناقشته ، وقد أدركوا حينئذ أن المناقشة على علم ، أجدى وأقوى من المناقشة بغير سلاح ولا عدة .

والواقع أن هذه الحملة التي كانت ثمرة الحروب الصليبية قد أحسن تنظيمها ، وكانت أشبه بحركة مقاومة علمية للاسلام . وإذا كانت الحروب الصليبية قد آبى بما آبى به من الاخفاق بعد أن استمرت قرنين من الزمان ، ولم ينجح السلاح ولا القوة ولا العدد الكبير ولا الحملات المسلحة فى دعم الامارات الصليبية اللاتينية التي أقامها المتدفكون من الغرب على بلاد العرب والاسلام ، فان سلاحا آخر غير الحديد والنار كانت تعدد أوروبا لمحاربة الاسلام ، ذلك هو سلاح المقاومة لهذا الدين بوسائل علمية وعن طريق الهدم المعنوى فى حركة ظاهرها العلم والبحث وباطنه المكر والخبث (١) .

وكانت الحروب الصليبية من منابع الاستشراق ، وكانت هذه الحروب فرصة لاتصال الغرب بالشرق ، وحدث الغرب نفسه بأن له مع الشرق تاريخا طويلا ، فكان لا بد للغرب المعتقد من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاستفادة به ، ومن أهم الوسائل الموصولة الى ذلك دراسة ما يتعلق بالشرق لاستغلاله من جهة ، ولتحوير ما يلزم للغرب تحويره من جهة أخرى .

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والمجحود ص ١٦ - ١٧  
( طبعة القاهرة ١٩٦٠ ) .

كما أن هذه الحروب قد أطاحت الغربيين عن طريق الاتصال بالشرق من جهة ، والمقارنة بين الإسلام ودينه من جهة أخرى ، على مواطن في دينهم تحتاج إلى مراجعة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة الاصلاح الديني ، وهذه الحركة استدعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العبرانية ، ثم انتقلوا إلى الدراسات العربية ، ثم كانت هناك الرغبة القوية في التبشير بال المسيحية في الشرق ، فاستلزم هذا دراسة اللغة العربية على أيدي المستشرقين ، لتكون تلك الدراسة معوانا على النجاح في هذا التبشير ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع وجهة التبشير مع وجهة الاستشراق (١) .

لم تكن الحروب الصليبية في الحقيقة حروبا دينية ، بل هي الحلقة الأولى في سلسلة الأطماع الأوروبية في الشرق العربي ، وهي حركة أوروبية اعتدائية توسيعية استمرت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح الإسلامية الأولى في أطراف الامبراطورية البيزنطية ، وفي أجواء الملك المسيحية الغربية في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط . وتضاف إلى هذه العوامل العالمية الكبرى عوامل أوروبية محلية ، وهذه ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى والى صميم التاريخ الأوروبي في ذلك القرن (٢) .

كان من جراء الفتوحات الإسلامية لقسم غير قليل من

(١) أحمد الشرباصي : التصوف عند المستشرقين ص ٧ - ٨ ( سلسلة الثقافة الإسلامية ) .

(٢) انظر مقدمة كتاب ( حملة لويس التاسع على مصر ) للدكتور محمد محيطفي زريادة .

المقاطعات الأوروبية أن تفتحت أذهان شعوبها إلى وجوب نبذ الاختلافات والحروب الدينية القائمة فيما بينهم وطرحها جانباً للعمل على جمع صفوفهم لمقاومة تيار الخطر الإسلامي الذي داهمهم بفتحاته وهم في غفلة عن ذلك ، وراح القوم ينادون تحت زعامة البابا ( أورين الثاني ) سنة ١٠٩٦ م إلى اعلان حرب صليبية .

ومن عوامل الحرب الصليبية رغبة البابوات في توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلاً من الانصراف إلى الحروب الداخلية ، ومحاولة الاستيلاء على ما بيد المسلمين من الممتلكات . ومنها مطامع الأمراء وال nobles على إنشاء إمارات مستقلة في الشرق . وطمع المدن الإيطالية في الحصول على منتجات الشرق ومتاجره . ومن هذه العوامل أيضاً انتشار الأوبيسة والمجاعات في غرب أوروبا (١) .

وإذا كان أولئك المغامرون قد حرصوا على الصاق شارة الصليب على ثيابهم ، مما أكسب حركتهم اسم الحروب الصليبية في التاريخ ، فإنه ليس هناك ما يثبت أن الصليب والكنيسة والدين كانت القوى الكبرى التي حركت مشاعرهم وجعلتهم يتocommiserون لنداء البابوية . وربما كان أقرب إلى الصواب ما قاله أحد كبار المؤرخين الغربيين المحدثين – وهو الأستاذ طومسون – من أنه يعتبر الحروب الصليبية أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبي في أواخر العصور الوسطى (٢) .

---

(١) الدكتور الباز العربي ، مصر في عصر الأيوبيين ص ٩ ( سلسلة ألف كتاب ) .

(٢) دكتور سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية من ١٦١ ( المكتبة الثقافية ) .

أدت الحروب الصليبية إلى انتعاش الاستشراق ، فقد أدى إلى اتصال حضاري واسع النطاق بين الشرق والغرب . ولكن الشرق لم يستفاد شيئاً من قدم الصليبيين ، بل استفاد الصليبيون الكبير ، الذين هم من منابع الحضارة الإسلامية التي لا تنضب ، فقال ( جوستاف لوبيون ) (1) : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من الهمجية . ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيده الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشيء من الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها في قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال .

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق من الغربيين غير أفراد أذكياء رحلوا في التجارة ، أو جاءوا إلى فلسطين للزيارة . أما في هذه الحروب فقد عرّفوا الشرق الإسلامي ، فرأوا المسلمين في عقر دارهم ، وحقّقوا أنهم ممتازون بصفات حربية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمّة تحررت من قيود رجال الدين ، وأنها أمّة من طراز آخر .

اقتبس الصليبيون كل ما وسعته قرائحهم وهضمته عقولهم من الحضارة العربية ، مما أدى إلى رقى شئون أوروبا العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية . وكانت الحروب الصليبية وما أدى إليها من اطلاع الصليبيين على الحضارة الإسلامية هي الخطوة الأولى نحو عصر النهضة في أوروبا . فيقول (لوبون) : إن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التسوّش وأعادوا النفوس إلى التقدّم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم .

(1) حضارة العرب ص ٣٣٤ .

## الاستشراق في العصر العثماني :

وبعد ظهور الدولة العثمانية وتوسيعها في القارة الأوروبية، دخل الاستشراق في مرحلة متميزة . فقد ازدادت روح التتعصب الصليبية . وقد اعترف بذلك ( جوستاف لوبيون ) فقال : « لا جرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلامهم في عهد شارل مارتل ، وفي الحروب الصليبية ، وبعد استيلاء العثمانيين على الآستانة ، يذلوننا بحضارتهم السامية الساحقة . ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسطلة علينا ، والنقطة على الإسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءا من نظامنا » .

وأوضح المؤرخ الهندي المسلم ( خودابخش ) (١) آثر فقد الأوروبيين على العثمانيين في ازدياد الاستشراق وروح كراهية الإسلام وال المسلمين ، فقال : حينما ظهر الأتراك العثمانيون بمظهر حماة الإسلام ، بعد سقوط الخلافة في بغداد ، بدأ دور جديد من صراع الإسلام والمسيحية . أما الكنيسة الغربية ، فقد دفعها حرصها على انتشار العقيدة الكاثوليكية ، لاخوتها وغيرتها على الدولة البيزنطية ، إلى تنظيم حملات صليبية للانتقام من الأتراك لما اقترفوه ضد المسيحيين ، وكان غرض هذه الحملات الحقيقي مقاومة الإسلام المتزايدة .

ويرسم ( كرد على ) (٢) صورة لأحقاد أوروبا على العثمانيين مما أدى إلى تعصب فكري وديني وقومي فيقول : وبديهي بعد هذه الطوائف والأحقاد التي طالت لياليها السود ، خصوصا بعد أن هزت

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٣٩ .

(٢) كرد على : الإسلام والحضارة العربية ص ٣ .

الدولة العثمانية في العصور الأخيرة أعصاب أوروبا زماناً ، أن يقول الخصم في خصم ما قد يحيط من قدره ، ويصغر من أمره ، ولا يفوتنا أن الجهل كان فاشياً في الغرب ، وأن الدين كان مسيطرًا على كل عالم وباحث ، وأصبحت آراء المؤرخين تختلف في الجوهر والعرض في الحادثة الواحدة ، لأن من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التعصب القومي .

ويبرز المفكر الأميركي المعاصر ( ولفرد كانتوويل سميث ) (١) دور الأتراك العثمانيين في حماية الإسلام والعالم الإسلامي ، فيقول ليس تاريخ الأتراك الإسلامي بالبعيد ، ولكنهم مثل العرب المسلمين ، فقد كان الأتراك عظماء في إسلامهم ، واستغلوا عظمتهم في دعم الإسلام ، فنشروه في جهات كثيرة كالهند ، ودافعوا عنه ضد المغول والصلبيين ، وهم الذين تغلبوا على الدولة البيزنطية ، ألد أعداء الإسلام ، فقضوا عليها . وفضلاً عن ذلك ، فقد نشر الأتراك المستعمرات الإسلامية في جنوب أوروبا . أما من جهة الثقافة الإسلامية فقد منحوها العون الكثير بنشاطهم ومتابرتهم ، كما زودوا الصوفية بعناصر ملخصة متحمسة ، ومنهم من حصل على أعلى الدرجات العلمية الإسلامية ، وقد بنوا المساجد الفخمة وعمروها .

ويشير ( سميث ) ( ٢ ) إلى نتائج الانتصارات العثمانية فيقول : وكان التحدي والانتصارات تصل إلى نطاق القيم والأفكار فالهجوم الإسلامي كان ينتمي النظر والعمل ، وكان الإسلام يركز أفكاره على مركز العقيدة المسيحية التي شرعت أوروبا تقييم عليها

(١) سميث : الإسلام في التاريخ الحديث ص ٥٢ ( سلسلة كتب سياسية ) .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢ .

مدنيتها ، وكان التحدى الاسلامى يتميز بالقوة حتى أنه تسلل بنجاح إلى قرابة نصف العالم المسيحي ، فكان القوة الایجابية الوحيدة التي اكتسبت مرتدى عن المسيحية ، يقدر عددهم بعشرات الملايين ، وكان القوة الوحيدة التي أعلنت أن المذهب المسيحي ليس زائفًا فقط ، بل شنيعًا أيضًا .

### الاستشراق في التاريخ الحديث :

لم يتبع تطور الاستشراق من مراحله الأولى في العصر الوسيط إلى مرحلة التحول النهائي إلى علم قائم على النقد التاريخي طريقاً مباشرةً مستقيمة . ولم يتشكل كعلم إلا عندما تأكد استعداد الأوروبيين للانصراف عن الآراء السابقة ، وعن كل لون من الألوان الانعكاس الذاتي ، وللاعتراف لعالم الشرق بكيانه الخاص الذي تحكمه نظمه الخاصة ، وعندما اجتهدوا في نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ولكن الجهد التي بذلك لانصاف الشرق ورسم صورة له مستمددة من المصادر تعرضت من حين آخر لاتجاهات اعتبرت سببها ، أو غطت عليها وأدت إلى تشويه صورته . وكان من بين مثل « حركة التنوير » من رأوا في النبي العربي أداة لله ومشرعاً حكيمًا ورسولاً للفضيلة وناطقاً بكلمة الدين الطبيعي الفطري بشيراً به . وصاحب هذا الاتجاه تحمس رومانتيكي لكل ما هو شرقي (١) .

وليس من الممكن تحديد الفترة التي بدأ فيها مثل هذا الاتجاه الجديد على وجه الدقة . ويمكننا أن نحدده بمنتصف القرن

---

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٥ .

الناسع عشر ، حيث بدأت الصفة العلمية بالمعنى الحديث تظهر في هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذي قبل . ولكن النية المتوجهة إلى فهم الموضوعات فيما موضوعيا ، كانت موجودة قبل ذلك بكثير ، وكانت أوضاع ما تكون في مجال الدراسات اللغوية ، ودراسات اللغة العربية خاصة ، فقد كان تعلم وتعليم اللغة العربية يقتصر على التمكن من وقائع مجردة خالصة ، ولم يكن الاختلاف في الأمور الدينية وما يتبعه من خطر تشويه المضمون يظهر ، الا بعد التمكن من اللغة ، وانتهاج سبيلها إلى الثقافة العربية الإسلامية الغربية المدونة (١) .

حتى اذا بدأت الأطماء الاستعمارية تظهر بوضوح في الدول الأوروبية ، بدأت هذه الدول في اقتطاع بعض أجزاء من الشرق العربي الذي كان خاضعا حينئذ للحكم العثماني ، بدأ الاستشراق يدخل في مرحلة جديدة متميزة .

وأدت هذه الأطماء الأوروبية الاستعمارية إلى حرص دول أوروبا على الوقوف على التاريخ العربي والاسلامي ، والكشف عن الحضارة العربية ، والتراث الاسلامي . فأحسنت كل دولة إلى مستشرقيها ، فضيهم ملوكها إلى حاشياتهم أمناء أسرار وترجمة وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والدبلوماسية إلى بلدان الشرق وولوهم كراسى اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة والمكتبات العامة والمطابع الوطنية ، وأجزلوا عطاءهم في الحل والترحال ، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية المجامع العلمية (٢) .

---

(١) المصدر السابق من ١٧ .

(٢) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١٤٩ ( طبعة دار المعارف بالقاهرة ) .

ومضى الاستشراق والغزو الاستعماري فترة طويلة في طريق واحد . وإذا كان الغربيون قد غزوا بلاد العرب والاسلام تلك الغزوات السياسية والعسكرية والاستعمارية التي نعرفها ، والتي أذن الله أن تتحرر منها ، فإن المستشرقين منهم قد غزوا تاريخ العرب والاسلام فأخذوا يقلبون وجوه البحث فيه ، وألقووا فيه كثيرا من الكتب . بل ساعدوا على تحقيق كثير من المخطوطات العربية التي نقلوها إلى مكتبات بلادهم ، أو أخذوا صورها من مكتبات الشرق ، أو استنسخوها على ذمة نشرها محققة . وقامت من أجل ذلك صناعة نشر التراث العربي الاسلامي في عدد من العواصم والمدن الكبرى في أوروبا (١) .

ولكن رغم أن المستشرقين قد حاولوا أن يكون استشراهم ودراساتهم على أساس علمية وطيدة ، إلا أن بعضها منهم لم يحيدوا عن الروح الصليبية التعصبية القديمة . وكانت فكرة الصليبيين القديمة في العداء للمسلمين مستمدة في الحقيقة من الفكرة اليونانية ، كما استمدوا منهم أدبهم وفلسفتهم ، وهي أن العالم ينقسم إلى يونانيين وبرابرة ، فاعتقدوا هم أيضا أن العالم ينقسم إلى سادة أوروبيين وعبيد من العالم الآخر . وكان الظن أن يصحح المستشرقون من الأوروبيين هذا الموقف ببحثهم وعلمهم . ولكن تبين أنهم من نفس البيئة التي كونت الصليبيين .

وكان من الأسف أن يكون في طبيعة هؤلاء المستشرقين مستشرقون مبشرون ، فأخذوا يستخدمون الاسلام في الطعن عليه أداة للتبرير ويختارون الاشياء التي تثير الأوروبيين على

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٥ ( القاهرة )

المسلمين . وجاء من بعدهم من المستشرقين غير المبشرين ، فسلكوا مسلكهم واحتذوا حذوهم ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرد بل كانوا يضعون الاتهام أولا ثم يبحثون عن الأدلة التي تقوى هذا الاتهام ، فيما عدا القليل منهم (١) .

### الاستشراق في النصف الثاني من القرن العشرين :

بدأت يقظة الشرق العربي في مطلع القرن العشرين ، وحرصت كثير من الدول العربية والإسلامية على إنشاء الجامعات والمعاهد ، وقد أتت بثمارها في الأربعينات من القرن العشرين ، حيث ظهر علماء متخصصون من بين العرب والمسلمين ، قاموا بدراسات كثيرة قيمة في مجالات الدراسات العربية والإسلامية ، وخاصة في ميدان التاريخ الإسلامي . واستطاع هؤلاء العلماء والمؤرخون العرب أن يسدوا الفراغات التي كانت قائمة ، والتي كان يسدتها من قبل المستشرقون .

صاحب هذه النهضة الفكرية والعلمية في العالم العربي ، يقظة قومية ووطنية ، فقد بدأت الدول العربية منذ مطلع القرن العشرين تكافح الحكم العثماني ، ثم بدأت بعد الحرب العالمية الثانية تناضل الاستعمار الأوروبي المحتفى وراء ستار الانتداب . وكانت رغبة العرب في الاستقلال والتحرر دافعة لهم على النهوض بأحوالهم الفكرية والثقافية . فقد كانت الدول الأوروبية تغزو العالم العربي عسكريا واقتصاديا وسياسيا وحضاريا أيضا . ورأى العرب أن النهضة الحضارية هي خير وسيلة للتحرر السياسي والاقتصادي ، حتى ~~ليستغنوا~~ العرب عما هو أجنبي .

---

(١) أحمد أمين : يوم الاسلام ص ١١٣ ( القاهرة ١٩٥٨ ) .

وكانَتْ كراهية العرب للأطماء الاستعمارية الأوروبيَّة مما دفعهم أحياناً إلى ابداء العداء للحضارة الأوروبيَّة ، ولم تكنْ كراهية العرب أحياناً للأجانب لكونهم أجانب ، ولكن بسبب تجارةِهم مع هؤلاء الأجانب ، وبسبب خوفهم منهم . لقد ظنَّ العرب في مطلع القرن العشرين أنَّ الدول الأوروبيَّة ستتساعدُّهم على التحرر من الحكم العثماني والفوز بالاستقلال ، ولذلك ثارَ العرب ضدَّ الدولة العثمانيَّة خلال الحرب العالمية الأولى وانضمُّوا إلى الحلفاء . ولكن سرعان ما نسيَّ هؤلاء الحلفاء وعودهم وبدأوا يرثون الدولة العثمانيَّة ويقتسمون الأقطار العربيَّة . وقاسى العربُ الكثير من ظلمٍ وفسادِ الادارة الاستعماريَّة البريطانيَّة والفرنسيَّة . ورغم ذلك فقد وقفَ العرب مرهَّةً أخرى إلى جانبِ الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحلفاء كافأوا العرب بأنَّ ضحوا بالمصالح العربيَّة .

فلا عجب أن يكره العرب الأجانب ، أو يتخوفون منهم ، أو لا يثقون فيهم . وهذه الكراهية غالباً ما تتعكس على المغاربات الأجنبية ، وتجعلَ العرب ينظرون نظرة شك وريبة إلى المستشرقين ويفسرون الاستشراق تفسيرات سياسية استعماريَّة .

نمتَّ الحركات السياسيَّة والوطنيَّة المختلفة في العالم العربي خوفَ العرب من كلِّ شيءٍ أجنبيٍّ ، سواءً الأقطار أو الناس ، وخاصةً الخوف من الحضارة والثقافة الأوروبيَّة التي تمثلان في نظرهم المستعمر الأوروبيِّ الذي يناضلونه ويناهضونه . ونتيجةً لارتباطِ الحضارة الأوروبيَّة بالحكم الاستعماريِّ المقيت ، فقد أصبحَ العرب يبغضونَ كلَّمَتَيْ (استشراق) و (مستشرقين) .

وظهرتَ آراءً كثيرة حولَ (الاستشراق) ، فبعضُ الآراء تذهب إلى أنه يجب الفصل بينَ العلم والثقافة والحضارة وبينَ

الجانب السياسي والأطماء الاستعمارية ولكن ترتفع أصوات أخرى تعارض هذا الرأى ، فقد مضى الاستشراق والاستعمار في طريق واحد بحيث قد يصبح من العسير الفصل بينهما ، والتمييز بين ما هو طيب أو خبيث . ورأى بعض آخر أنه يمكن تنقية أبحاث المستشرقين وكتبهم من الشوائب والاستفادة مما هو بعيد عن الدافع الاستعماري ، بحيث تكون الجهود النقية الخالصة التي بذلها المستشرقون صالحة لقييم العرب على أساسها أبحاث جديدة قيمة ، وخاصة أن الحضارة والثقافة ذات طابع عالمي ، وهي تراث بشري ، مملوك للأسرة الإنسانية جموع ، وأنه من العسير أن يبدأ المفكرون العرب من أول الطريق ، وأن يتوجهوا جهود المستشرقين التي استمرت نحو قرنين . وغالب البعض في تقدير قيمة أبحاث المستشرقين ، فقد بهرتهم الحضارة الأوروبية والأمريكية ، ولذا دعوا العرب إلى أن ينهلوا من مناهل هذه الحضارة ، فيسيراً في نفس الطريق الذي سار فيه الأوروبيون والأمريكيون حتى وصلوا إلى هذه الحضارة الظاهرة .

هذه هي الآراء التي أثيرت في العالم العربي . ويمكننا أن نقف منها موقفاً وسطاً . ونرد على من دعوا إلى أن يساير العرب الدول الأوروبية والأمريكية في فكرها وحضارتها ، بأن الحضارة الأوروبية التي بهرت أنظارهم في القرن العشرين إنما قامت على أساس الحضارة العربية الظاهرة التي سادت طوال العصور الوسطى ، وقت أن كان ظلام الجهل والتأخر يخيم على القارة الأوروبية . وأن هذا الأساس نفسه يصلاح لقيام حضارة عربية في القرن العشرين قد تكون أعظم من الحضارات الأوروبية والأمريكية .

أن الانغماض في الحضارة الأوروبية يجعل الأمة العربية

( أمة شحاذة ) وهذا لا نرضاه ، بل نأباه تماماً . إن تركيا خير مثال لذلك ، فانها بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى انعمست فى الحضاراتين الاوروبية والامريكية ، فقد كرهت تركيا أن يقال عنها أنها دولة آسيوية ، وأرادت أن تكون قطعة من أوروبا ، وكأنها أرادت أن تغير تاريخها وجغرافيتها . وانحرفت تركيا الى التيار الأوروبي ، وأصبحت تعيش عالة على الحضارة الاوروبية . ونسبيت تركيا أيام الدولة العثمانية المجيدة حينما كانت فى أوج قوتها ، تفزو وسط أوروبا ، وتحكم كثيراً من الدول الاوروبية ، وتمدها بالحضارة الاسلامية .

واننا ندعو العرب الى التمسك بالحضارة العربية ، التي عرف الأجانب قدرها فى الماضى فأقبلوا ينهلون منها واتخذوها أساساً أقاموا عليه صرح الحضارات الاوروبية والامريكية . فهي حضارات عربية عريقة ، متينة الاسس ، قوية البنية . ولكننا لا ندعوا ، فى نفس الوقت ، الى تجاهل تام للحضارات الأجنبية ، بل ندعوا الى اقتباس ما لا يتعارض مع حضارتنا العربية وفكرنا العربي وقيمنا الروحية ومثلنا العليا واستقلالنا القومى . أى ندعوا الى (الاقتباس) ، وننهى عن سياسة (الانغماس) ، حتى لا تصبح الأمة العربية (أمة شحاذة) تعيش على تراث وأفكار غيرها من الأمم فحسب . وعلى العرب أن يتبعوا فى اقتباسهم مبدأ الحياد الايجابى بين الحضارات والثقافات المختلفة ، أى تمسك بمبادأ الحياد الحضارى .

وأننا لا نستطيع أن نجحد جهود المستشرقين ، ولا يمكن أن ننكر تماماً فضلهم ، ولا يجوز لنا أيضاً أن نستغنى على وجهه الاطلاق عن دراسات المستشرقين فى أبحاثهم ، بل من واجبنا الاطلاع على وجهات النظر الغربية فى موضوعات تاريخنا العربى

والاسلامى وان القارئ المثقف ، والمطلع الفطن ، أو الباحث المتخصص ، يستطيع أن يقوم أبحاث المستشرقين تقويمًا حقيقىاً صادقاً ، كما يمكنه أن يميز بين الغث والسمين ، وبين وجوه الاصناف والإجحاف . وقد أصبح حكماً سليماً واقعياً ، وخاصةً أن يحكم على دراسات المستشرقين حكماً سليماً واقعياً ، وخاصةً بعد ظهور كثير من الأبحاث التي قدمها لنا علماء وأساتذة عرب متخصصون ، مما أوجد مجالاً لعقد دراسات مقارنة بين اتجاهات المستشرقين وآراء المفكرين العرب .

### مستقبل الاستشراق :

لقد تغيرت صور الاستشراق في تاريخنا المعاصر ، مما كانت عليه في مطلع القرن العشرين ، أو في القرن التاسع عشر أو في العصور الوسيطة . نتيجة تغير الأوضاع السياسية في الشرق العربي ، ونتيجة النهضة القومية ، والبيئة الفكرية التي نشهد لها اليوم في العالم العربي ، ونتيجة تطور العلاقات السياسية بين الدول العربية والدول الأوروبية والأمريكية .

أصبح الاستشراق في السنوات الأخيرة يعيش في دائرة محدودة ضيقـة ، بعد السيول الجارفة من أبحاث المستشرقين التي شهدناها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وأصبح الاستشراق الآن يعيش في البيئات الأوروبية ، بعد أن أغلق الشرق العربي أبوابه في وجه المستشرقين .

حينما كانت الدول العربية في مطلع القرن العشرين تحت انتداب الدول الأوروبية كانت الابواب مفتوحة على مصراعيها أمام المستشرقين ، يصولون وييجولون في حرية تامة ، وكانت دول الانتداب تتتحكم في توجيهه الثقافة وتخطيط وسائل التربية

والتعليم . وتمتع المستشرقون بحرية تامة في التجول بين مكتبات الشرق العربي ، يسطرون أحياناً على مخطوطاتها ، أو يصوروها وينسخوها حسب رغبتهم ، وينبشون الآثار القديمة في الأرض العربية ، ويسلبون معظمها ليملأوا بها المتحف الأوروبي . وكان العرب لا يزالون في مطلع القرن العشرين في أول طريق الحضارة والثقافة ، مما يجعلهم في حاجة إلى تلك البضاعة الأجنبية المستوردة التي يقدمها لهم المستشرقون . وكان كثير من المستشرقون يظهرون في ثوب البراءة . ويكدون حسن نواياهم ، وأنهم إنما ي يريدون الكشف عن التراث العربي والاسلامي ، ودراسته تبعاً للمنهج العلمي الحديث ، خدمة للمغرب والمسلمين ، وخدمة للعلم والحضارة فيحسب .

وكان العرب إذا أرادوا الاطلاع على التراث العربي لا يجدون أمامهم إلا ما نشروه وحققه المستشرقون . حتى أصبح الميدان مقصوراً على أبحاث هؤلاء المستشرقين . ثم تغيرت الأوضاع سريعاً ، فقد بدأت نهضة فكرية وعلمية في أرجاء الشرق العربي ، وظهر من بين العرب علماء أفادوا متخصصون في سائر فروع المعرفة وقاموا بنشر وتحقيق أمهات الكتب العربية القديمة ، كما قدموا لنا أبحاثاً قيمة في مختلف المجالات ، وخاصة في التاريخ الاسلامي ، قد تكون أكثر عمقاً وفهمًا وقيمة من أبحاث المستشرقين نتيجة اجاده العلماء للغة العربية ، وحياتهم المستمرة في الأرض الغربية والاجواء الاسلامية .

وفي نفس الوقت ، بدأ استقلال الدول العربية سياسياً ، كما بدأ تحررها الفكري والحضاري أيضاً ، ولم يعد المستشرقون يجدون تلك الحرية القديمة التي مارسوها طويلاً ، كما أصبح العرب على وعي قومي وفكري ، فيما ينظرون أحياناً نظرة شك أو حذر إلى أبحاث المستشرقين . ولذا بدأ انكماش الاستشراق ،

ورأى المستشرقون أن يبحثوا لهم عن مجال نشاط وميدان آخر ،  
غير الميدان العربي .

وانحصر الاستشراق الآن في الجامعات والمعاهد في مختلف الدول الأوروبية والأمريكية ، فتتبارى هذه الجامعات الأجنبية في إنشاء المعاهد التي تختص بالدراسات العربية والاسلامية ، و تقوم بتدريس اللغة العربية إلى جانب لغات الشرق الأخرى ، كما تنشئ كراسي الاستاذية في الجامعات ، و تقدم بعض المنح العلمية لأبناء الشرق . وقد اتخد الاستشراق الآن ، صفة أكاديمية ، واصطبغ بصفة علمية ، وسار في طريق علمي ، بعد انفصله عن الطريق السياسي الاستعماري . وقد يلتقيان أحياناً ويمضيان في طريق واحد إذا دعت الحاجة أو حتمت الضرورات السياسية .

و هذه الدراسات التي يقوم بها المستشرقون الان في جامعاتهم الأوروبية والامريكية يقدمونها غالباً لمواطنيهم ، ولم يعد العرب

والشرقيون يهتمون بها كثيرا ، فقد أغناهم العلماء والمفكرون العرب بأبحاثهم القيمة ، التي تبرز غالباً بحث المستشرقين . وأصبحت الجامعات العربية تمنع ( الدكتوراه ) ، ولم تعد الدول العربية في حاجة لارسال أبنائها لنيل هذه الدرجة العلمية من الخارج . ونلاحظ أن الكتب الأجنبية التي تتناول دراسات عربية واسلامية ، والتي وصلتنا أخيراً ، لا تتصف غالباً بالعمق والدسمة ، بل هي غالباً كتب سطحية خفيفة ، كتبها المستشرقون لأبناء وطنهم لأنها لا تقييد العرب ولا تسمم ولا تغنى من جوع .

ولذا فاننا نقول ان مستقبل الاستشراق محدود ، وأن مجالاته تنكمش ، وقد أصبحت كفة الباحثين العرب هي الراجحة الآن . وأصبح الغرب في غير حاجة الى ( فكر مستورد ) ، وبات المستشرقون يجترون جهودهم السالفة وانحصرت بحثهم الجديدة في دوائر محددة .

رَفِعُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَخْرَيِّ  
الْمُسْكِنُ لِلَّهِ الْفَزُورُ كَسْ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

## دَوَافِعُ الْاسْتِشَرَاقِ

### عوامل اختلاف الدوافع :

ان الاستشراق حقيقة واقعة ، وقد شمل الاستشراق كثيرا من جوانب حضارتنا وفينا وثقافتنا العربية ، وتزخر مكتباتنا العربية والاسلامية بأبحاث عديدة للمستشرقين ، في سائر فروع المعرفة ، وبلغات أجنبية عديدة ، ومعظمها مترجم الى اللغة العربية . ولا يزال كثير من الباحثين يرجحون الى ابحاث المستشرقين في دراساتهم وانتاجهم العلمي . ولا يزال الرأي في الاستشراق موضع بحث وجدل ونقاش . ولم يصدر المفكرون العرب حكما نهائيا على نوايا المستشرقين ، ولم يقيموا جهودهم وأبحاثهم تقريبا محددا .

وإذا سلطنا الأضواء على الدوافع التي حدت بالمستشرقين للقيام ببحاثتهم ودراساتهم ، والظروف السياسية التي أحاطت

يهؤلاء المستشرقين ، والدول التى ينتمى إليها المستشرقون ، وال العلاقات القائمة بين الدول العربية والدول الأوروبية ، وأحوال العرب السياسية والحضارية والفكرية ، لأمكننا أن نفهم طبيعة الاستشراق ، واتجاهاته ، ومراميه ، ثم نصدر حكماً حقيقياً منصفاً صادقاً ، نقيم به الاستشراق وجهود المستشرقين .

والاستشراق هو نتيجة ، ولكن الدوافع تختلف كثيراً ، تبعاً لاختلاف الأزمنة والصور التاريخية ، والاختلاف العلائقات السياسية والدولية ، والاختلاف البيئات الجغرافية ، وتنوع المستويات الحضارية . إلى جانب الفروق الفردية ، فليس كل المستشرقين صنفوا واحداً ، فهم يختلفون في عقلياتهم ونفسياتهم وصفاتهم ، فكان هناك من المستشرقين من أبدى اعجاباً واقبالاً على حياة الشرق ، وتحمس للحضارة العربية تحمساً كبيراً ، وانعكس ذلك في هذه الميول والاتجاهات في كتاباته وأبحاثه . ومن المستشرقين من اتصف بالتعصب الأعمى ، ضد الإسلام أو العروبة أو الشرق ، وكانت كتاباته كلها سهاماً مسمومة . ومنهم أيضاً من أبدى اعجابه بالإسلام حتى أنه اعتنقه وأخلص له ، وانعكس ذلك على أبحاثه ، فأقبل يخدم هذا الدين وحضارته ، بقلمه وفكره . ومن المستشرقين من تأثر بسياسة دولته التي ينتمي إليها ، فأصبحت أبحاثه هي صورة لاتجاهات هذه الدولة وأهدافها السياسية أو الاستعمارية . ومن المستشرقين من هم ضعاف النفوس ، فأصبحت أقلامهم مأجورة لسياسة بلادهم ، أو للصهيونية العالمية . ولكن من المستشرقين أيضاً ، من اتصف بالتعمق العلمي ، والتفهم الحقيقي ، والانصاف الواقعي ، ومنهم من كرس حياته ووقته وجهده للاستشراق ، يدرس العلم للعلم ، ويبحث عن الحقيقة أينما كانت .

ويمكننا أن نركز الدوافع التي دفعت بالمستشرقين إلى

الاستشراق ، في ثلاثة دوافع رئيسية ، يتفرع منها دوافع ثانوية ، وهذه الدوافع الرئيسية : دينية ، واستعمارية ، وعلمية.

ظهرت هذه الدوافع الدينية واضحة في العصور الوسطى ، وببداية التاريخ الحديث . وقد تحدثنا في الفصل السابق ، عند دراستنا لمراحل الاستشراق ، عن مرحلة الاستشراق في العصور الوسطى ، التي اتصفـت بالتعصب الديني .

يرى ( خودا بخش ) (1) أن هذا التعصب الديني كان ناتجاً عن سيطرة الكنيسة على أهالي العصور الوسطى ، وقد أدى انتشار الإسلام وقوته إلى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الإسلام قد أصبح خطراً على المسيحية . وكان هذا الشعور بالخطر ، هو بداية انطلاق الكنيسة الكاثوليكية المعادي للإسلام وما تبعه من استشراق .

نهضت الكنيسة لتواجه تهديد الإسلام للمسيحية ، فلم تعد تتبع سياسة اللين والتسامح . وإذا أدركتنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحيي العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور فانـنا ندرك ما نال الإسلام طوال العصور الوسطى من هجـوم وقدح ، وذلك نتيجة منطقية للمظروف السائد في تلك العصور .

وتحـالـفـ التعـصـبـ الـديـنـيـ معـ الجـهـلـ السـائـدـ فيـ العـصـورـ الوـسـطـىـ ، علىـ تـشـويـهـ صـورـ الـاستـشـراقـ الـقـائـمـ فيـ هـذـهـ العـصـورـ . فقد أدى هذا الجهل إلى أن الإسلام ظل غير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحي ، كما ظل محمد في الأدب الأوروبي شخصية غامضة . ويمكنـناـ أنـ نـنـسـبـ هذاـ الجـهـلـ بـالـاسـلـامـ وـبـمـحـمـدـ عـلـيـهـ

---

(1) المـضـارـةـ الـاسـلـامـيـهـ ( منـ تـرـجمـتـنـاـ ) صـ ٣٧ـ -ـ ٣٨ـ .

الصلة والسلام ، الى قلة الفرص المتاحة للمسيحيين لدراسة حياة الرسول أو عقيدته ، اذ أن علاقات البيزنطيين في ذلك الحين بال المسلمين كانت محدودة .

ولكن منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي بدأت ترجمة معظم كتب العرب ، في الفلسفة والطب والملك والرياضيات ، إلى اللغة اللاتينية . وهذا يدل على أن كثيراً من المسيحيين أصبحوا يجيدون اللغة العربية . وفي مقدمة هؤلاء نجد ( راي蒙وند Raymond ) رئيس أساقفة توليدو ، وحاكم مدينة كاستيل ( 1130 - 1150 ) الذي شكل هيئة من المترجمين ( Dominican Gondeslavi ) تولى رئاستها وسمّاها

والى جانب الدول البيزنطية ، فقد اتصلت أوروبا بال المسلمين عن طريق إسبانيا وخاصة مدينة توليدو ، وعن طريق صقلية ومملكة نابولي . ورغم أنه كان من السهل أن يعلم المسيحيون الكثير عن الإسلام ، إلا أنهم ظلوا طوال العصور الوسطى يجهلون كل شيء عنه ، بل جهلو اسم ( محمد ) فنراه في أدب العصور الوسطى يكتب ( Mophomet ) أو ( Baphomet ) أو ( Befum ) بل ظل المسيحيون قرونا يعتقدون أن محمداً هو الله المسلمين !! ومن سوء الحظ أيضاً ، أن أقطار غرب أوروبا كانت معلوماتها الأولية عن الإسلام ، عن طريق مصادر غير صادقة ، وهي المصادر البيزنطية ، ونحن نعلم مدى العداء التقليدي القديم بين العرب المسلمين والرومان البيزنطيين . وكان البيزنطيون يعتبرون الإسلام خطراً على عقيدتهم ولما كانت الدولة البيزنطية تشعر بعجزها عن مواجهة الدول الإسلامية فقد لجأت إلى السلاح الديني ، وهو تجريع العقيدة الإسلامية .

ظهرت في القرن الحادى عشر الميلادى كتب تناولت الإسلام

وقد حمل ( بيتр ) هذا لواء حملة نشطية ضد الإسلام ، ولام المسيحيين على مهادنة الإسلام ، ووضع خطة لمحاربته . ورأى ( بيتر ) أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هي القرآن ، ولهذا السبب ترجم القرآن إلى اللاتينية . وتاريخ أول ترجمة يدعى إلى الحديث عنها ، إذ أنه لا يجوز أن نصفها بأنها ( ترجمة ) على أي حال من الأحوال ، فان ( روبرت ) الذى تولى أمر الترجمة لم يقم بترجمة القرآن حرفيًا ، بل قام بترجمة بعض المعانى العربية بقدر ما استطاع .

و (روبرت) هذا رجل انجليزى ، قام برحلات الى فرنسا وايطاليا والبلقان واليونان ، ورحل الى آسيا حيث تعلم اللغة العربية . وفي يوليو ١١٣٦ م استقر فى برشلونة ، ثم أصبح أرشيدوق (بامبليونا) . ثم قام (بيتر) بتكليف (روبرت) بترجمة عدة كتب عربية الى اللغة اللاتينية ، وهى تضم دراسة لحياة محمد وتاريخ الخلفاء الى عهد يزيد الأول ومصرع الحسين ، كما ترجم القرآن أيضا وانتهى من ترجمته سنة ١١٤٣ .

فتحت مؤلفات ( بيتير ) عهدا جديدا للصراع الديني الموجه ضد الاسلام ، فقد كانت مؤلفاته هي المتبعة الذى استقى منه كتاب العصور الوسطى ، ولذا ظهرت حملات كثيرة ضد الاسلام فى كتب ألقت بمعظم اللغات الاوروبية ، بل ان بعض الكتب جعلوا حملاتهم المعادية لمحمد وعقيدته على شكل قصائد شعرية ، في بينما كتب

(Walter of Sens) حياة محمد باللغة اللاتينية ، نظمها (Alexander du Pont) بالشعر الفرنسي وانتشرت الترجمة التي قام بها روبرت للقرآن انتشارا واسعا طوال العصور الوسطى . كما اتخدت الحملات الموجهة ضد الاسلام أحيانا صورة جدل ونقاش بين رجال الدين المسيحي والاسلام ، وقد يكون هذا الجدال حقيقيا أو خياليا (١) .

ومن أشهر المستشرقين المتعصبين في العصور الوسطى ، الذين أساءوا إلى الاسلام والرسول ( جيبرت أوف نوجنت Guibert of Nogent) الذي كتب عن حياة الرسول ، فكانت كل كتاباته مجموعة من الأساطير الخرافية ، التي ابتدعها أو نقلها عن غيره من المغارضين . ومن هؤلاء المستشرقين المتعصبين أيضا (هيلد برت ) أسقف ( ليمونز ) ورئيس أساقف ثور في سنة ١١٣٣ م ، فقد كتب تاريخا للرسول هو مجموعة من الخرافات والافتراءات . وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر كتب ( والتر ) شعرا عن ظهور الاسلام كما رواه له أحد المسلمين الذين اعتنقوا الاسلام حديثا . وأبرز الجوانب التي تعرض لها هؤلاء الثلاثة في حياة الرسول قصته مع الراهب بحيرى الذي التقى به خلال رحلة الرسول إلى الشام في قافلة عمه أبي طالب . وذكر هؤلاء المستشرقون الثلاثة قصصا خيالية بعيدة تماما عن الواقع التاريخي ، فنذكر على سبيل المثال ما ذكره ( والتر ) من أن الرسول قاد جماعة من أتباعه لغزو أراضي الدولة الفارسية .

ومن هؤلاء المستشرقين المتعصبين الذين شهدهم العصور الوسطى أيضا ، ( أندريا داندولو ) الذي رد ما ذكره الثلاثة السابق الاشارة اليهم ، وأضاف عليها كثيرا من خياله المغرض .

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية ( من ترجمتنا ) ص ٤٦ - ٤٩ .

ثم يأتي دور ( توسكان توماس ) الذي كتب في سنة ١٢٧٨ مجموعة من الأساطير الخرافية وزعم أنه استمدتها من كتاب قديم نادر عشر عليه في ( بولونا ) . ثم يأتي دور أمير ( بوفيه ) الذي ألف كتاباً عن الرسول أيضاً أساء إليه فيه اساءات بالغة (١) .

هذه الكتب التي وضعها مستشرقون متخصصون مغرضون هي في الحقيقة صورة لأحقادهم على الإسلام وال المسلمين ، فقد رأوا بكل باتهم أن ينفسموا عن هذه الأحقاد بعد أن عجزت الدول المسيحية عن وقف تيارات الفتوحات الإسلامية وانتشار الحضارة العربية في القارة الأوروبية نفسها . وهذه الكتب أيضاً لا تتبع منهاجاً علمياً ، ولن يست قائم على دراسة عميقة ، بل هي مجموعة خرافات وافتراضات واساءات ، تأخذ الصورة القصصية والأسطورية التي ربما تشير حب استطلاع الأوروبي ، وتجعله يقبل على قراءتها .

وإنصافاً للحق ، نقول انه قامت في العصور الوسطى حركة مضادة لهذه الحركة المتخصصة المغرضة . فقد ظهر من بين الأوروبيين نفر منصفون أبدوا سخطهم على حملة الافتراضات والاساءات ، وقدموا لمواطنيهم كتاباً تنصيـف الإسلام والرسول وتحاول أن تزيل الشبهات التي أثارها الآخرون ، ولكن هذه الكتب المنصفة أيضاً لم تتبع منهاجاً علمياً ثابتاً ، ولم تخل أيضاً من بعض الأساطير .

ومن هؤلاء المستشرقين ( وليم of Lripoli ) الذي امتدح الإسلام وأثنى عليه ، واجتهد في فهم حقيقة العقيدة الإسلامية وحياة الرسول ، وحينما نقرأ كتابه نشعر أننا نتنفس هواء نقياً ، فنظرته بعيدة عن التعصب ، وحكمه ليس نتيجة فكرة

---

(١) المصدر السابق .

خادعة . وقد أشاد ( وليام ) بصحابة الرسول ، وذكر كثيراً من أسمائهم ، كما دون صورة واضحة نقية لعهد ظهور الإسلام . كما تحدث ( وليام ) عن نزول الوحي والقرآن ، وقد اهتم بالآيات القرآنية التي تتشابه في تعليماتها مع تعاليم المسيحية ، ثم اهتم بالسور التي تبين نظرة المسلمين إلى الله عز وجل . فذكر أن المسلمين يعبدون الله باعتباره خالق العالم ، كما يجعلون المسيح باعتباره نبياً كما يحترمون العذراء مريم . وذكر ( وليام ) أنه أمضى بعض الوقت بين المسلمين ، وأنه بعد أن عاشرهم يمكنه أن يعترف أن الإسلام قد أثر على المؤمنين به فهذب أخلاقهم ، وذكر أن الجانب المشرق للإسلام لا يتضمن إلا ملئ عاش بين المسلمين ، وعرف الأمور على حقيقتها ، وحينئذ يكفي عن تحريرهم المسيحيين ضد المسلمين .

ومن هؤلاء المستشرقين الذين بعدوا عن التعصب ، ( تيتمار ) الذي امتدح الرسول كثيراً لأنَّه حثَّ أصحابه على الرحمة وإنكار الذات ، والعطف على الفقراء والضعفاء . ومنهم أيضاً ( أوتو المسيحيون من مظاهر الوثنية ، وأكَّد في عزم أنَّ الإسلام دين التوحيد وأنَّه يعترف بال المسيحية وسائل الرسل .

ومن أبرز هؤلاء الكتاب المنصفين الواعظ ( نيكلودوس أوف مونت كريستو ) الذي عاش في أواخر القرن ١٣ وفي مطلع القرن ١٤ ، فقد كان أكثر عدلاً وانصافاً من معاصريه ، فقد أمضى سبع سنوات بين المسلمين ودرس فيها القرآن عن قرب ، وتحدث عما حثَّ الإسلام عليه من فضائل ، بل ذهب بعيداً حتى أنه طلب من أخوانه في المسيحية أن يتخلوا من الإسلام وصفات المسلمين مثلاً علياً لهم . وأبدى اعجابه بدراسة القرآن في مدارس بغداد ، وذكر أنه عاش ثلاثة أشهر بين سائقى الإبل في الصحراء ، الذين لم ينسوا

حتى في أوقات الشدة والضيق أن يؤدوا فرائض الصلاة ، ولا حظر أن كثيرا من المسلمين يقبلون على أداء الصلاة في شغف وتلهف . وأبدي (نيكلدوس) اعجابه بالوضوء الذي يسبق الصلاة . كما أبدي اعجابه بحب المسلمين للإحسان والتصدق ، وقد لاحظ انتشار المؤسسات الخيرية ، وأثنى على نظام الزكاة الذي فرض من أجل مساعدة الفقراء ، وأبدي اعجابه أيضا بنظام تخصيص خمس الغنائم من أجل أغراض الإحسان ، كما أن الأغنياء كانوا يوقفون أملاكم من أجل أغراض الخير ، كما كانوا يتصدقون بالفدية التي كان يدفعها الأسرى للمسلمين مقابل إطلاق سراحهم ، وأبدي اعجابه بشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات ، وأظهر مدى اجلال المسلمين لربهم ، حتى انهم يبدأون جميع كتاباتهم بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، كما انهم يخلعون أحذيتهم قبل دخولهم إلى المسجد . وأشاد بكرم المسلمين وحسن ضيافتهم ، وذكر أن كل من أكل ملحهم فقد أصبح في حمایتهم .

ورغم هذا الصدق ، وهذا التفكير السليم الذي أبداه (نيكلدوس) إلا أنه كان أحيانا يجذب حذو معاصريه أحيانا ، ولكن الأخطاء التي وقع فيها لا تنقص كثيرا من قيمة كتاباته فنظرته العامة للاسلام منصفة ومن المسائل التي انتقدها (نيكلدوس) ما جاء في القرآن عن انشقاق القمر ، كما انتقد نظام المواريث الاسلامي ، ووصف القرآن لنعيم الجنة (1) .

ثم دخل الاستشراف المصطينج بصيغة دينية في دور جديد ، أكثر تنظيما واتساعا ، وقام الفاتيكان بحمل لواء هذه الخطوة الجديدة ، واشتركت فيها البابوات والأساقفة والرهبان الذين استفادوا من نفوذهم لدى الملوك والأمراء . وكان رجال الدين ،

(1) خودابخش : الحضارة الاسلامية في ٥٩ - ٦٢ .

ومن جعهم الفاتيكان يومئذ ، يؤلفون الطبقة العاملة فى أوروبا ، ولا سبيل لهم الى ارساء نهضتها الا على أساس من التراث الانساني الذى تمثلته الثقافة العربية ، فتعلموا العربية ، ثم اليونانية ، ثم اللغات الشرقية للمنفوذ منها اليه ، ولتحريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين واليهود ويردون عليهم ببراهين من كتبهم أنفسهم . فى البلاد التى أجلهم الاسلام عنها ، ثم لتدريب أدلة ينخاطبون بالعربية للقيام على خدمة الحجاج من أصياغ العالم الى الارض المقدسة والعنية بعابرى السبيل . ثم لتحقيق الكتاب المقدس . وقرر الفاتيكان تعليم اللغة العربية ، الى جانب اليونانية والدراسات الشرقية ، فى مدارس أسبانيا ، ومدارس الأديرة والكلادرائيات . وإنشاء كراس لغة العربية فى جامعات روما وبارييس وأكسفورد وبولونيا وغيرها . وتم تكليف هؤلاء الأساتذة بترجمة الكتب العربية الى اللاتينية ترجمة علمية دقيقة . واستعانو فى الترجمة بمن يجيد العربية من النصارى والمسلمين واليهود ، فكانوا يترجمون ترجمة حرفية ، ثم يقوم رجال الدين بالصياغة فى أسلوب لاتيني متين . ولما كان الشرق أسبق فى الحضارة من أوروبا بنحو ثلاثة قرون ، فقد تفوقت اللغة العربية على سائر اللغات ، لأنها لغة العلم . ولغة الفلاسفة كابن رشد وابن سينا وغيرهما (١) .

ومن أشهر المستشرقين من رجال الدين فى العصور الوسطى ( جبرير دى أورالياك ٩٣٨ - ١٠٠٣ ) ، وكان فى أول أمره من الرهبان البندكتيين ، ثم قصد الأندلس وأخذ عن أساتذتها ، حتى أصبح من أبرز علماء عصره فى الدراسات العربية والرياضيات والفلك ، وحينما رحل الى روما أصبح أول بابا فرنسي باسم

---

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ١ ص ١١٤ - ١١٦

( سلفستر الثاني ٩٩ - ١٠٣ ) ، وقد أمر بانشاء مدرستين عربيتين في روما . ( رايمس ) ، وهو الذي أدخل الاعداد العربية في أوروبا . ومن هؤلاء المستشرقين أيضا ( قسطنطين الأفريقي المتوفى عام ١٠٨٧ ) ، وقد ولد في قرطاجنة ، ورحل إلى فرنسا وبغداد والشام ومصر والقيروان والهند ، وترهب في دير مونتي كاسينيو وترجم كتب الطب والفلك من العربية إلى اللاتينية . ومنهم أيضا الراهب الأيرلندي ( ديكوويل ) الذي زار مصر ووصف أهراماتها . ومنهم أيضا الراهب البندكتي ( أدلورد أوف باث ١٩٧٠ - ١١٣٥ ) الذي درس في تور والأندلس وصقلية وآثر مذهب العرب في العلم على مذهب الفرنجية ، وترجم كثيرا من الكتب العربية . ومن هؤلاء المستشرقين البارزين ( بطرس المكرم ١٠٩٤ - ١١٥٦ ) وهو راهب فرنسي أصبح رئيساً لمدير كلونى الذي أصبح مركزاً خطيراً لنشر الثقافة العربية . وهناك أسماء كثيرة ساهمت في حركة الاستشراق ، ونقل التراث العربي إلى القارة الأوروبية (١) .

وكان الحروب الصليبية هي المسبّب الدفين الذي انبع منه سيل الاستشراق ، فقد كانت هذه الحروب فرصة لاتصال الغرب بالشرق ، وحدث الغرب نفسه بأن له مع الشرق تاريخاً طويلاً، فكان لابد للغرب المعتدى من معرفة ما يمكنه معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاستبداد به ، ومن أهم الوسائل الموصولة إلى ذلك دراسة ما يتعلق بالشرق لاستغلاله من جهة ، ولتحوير ما يلزم للغرب تحويره من جهة أخرى .

كما أن هذه الحروب قد أطّلعت الغربيين - عن طريق

---

(١) المصدر السابق .

الاتصال بالشرق من جهة ، والمقارنة بين الاسلام ودينه من جهة أخرى – على مواطن في دينهم ، تحتاج الى مراجعة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة (الاصلاح الديني) وهذه الحركة استدعت مراجعة أصول الدين عندهم ، فاستدعت المراجعة نوعا من الدراسات العبرانية ، ثم انتقلوا الى الدراسات العربية ، ثم كانت هنالك الرغبة القوية في التبشير بال المسيحية في الشرق ، فاستلزم هذا دراسة اللغة العربية على أيدي المستشرقين ، ولتكن تلك الدراسة معاونا على النجاح في هذا التبشير ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار مع وجهة التبشير مع وجهة الاستشراق . ولذلك نجد بداية الاستشراق تنشأ على أيدي الرهبان من المبشرين الغربيين ، كما نجد التعاون الوثيق بين هؤلاء وبين رجال الاستعمار (١) .

أثرت الحروب الصليبية في القارة الأوروبية ، إذ أدت إلى اضعاف النظام الاقطاعي ، وهو النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي أعطى المجتمع الأوروبي الغربي طابعه في هذا العصر . ويبعدو أثر الحروب الصليبية واضحا كذلك في الميدان الاقتصادي ، إذ ساعدت تلك الحروب على احداث تطور ملحوظ في النظم المالية في غرب أوروبا ، هذا إلى ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، مما أدى إلى نتائج خطيرة في غرب أوروبا ، منها ازدياد نفوذ المدن وقوتها ، واتساع نطاق النشاط المصرفي ، وتحسين طرق التجارة ، ونشاط الطرق البحرية . كما أن الحروب الصليبية أتاحت فرصا كثيرة للاتصال الحضاري بين الغرب الأوروبي والشرق العربي ، مما أدى إلى انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية الاسلامية إلى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين (٢) .

(١) دكتور أحمد الشريachi : التصوف عند المستشرقين ص ٨٠٧ .

(٢) دكتور سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٠٦ .

ثم دخلت أوروبا في عصور النهضة، وحدثت تطورات محلية كثيرة، أدت إلى تطوير لحركة الاستشراق. فقد تميز الاستشراق في العصور الوسطى غالباً بطبع ديني، وكان معظم المستشرقين من رجال الدين المسيحي، والذين كان لهم النفوذ الأغلب في أوروبا، وكانت السياسة والدين في القارة الأوروبية يمضيان في طريق واحد. ثم بدأ الانفصال بينهما وبين الدين.

أدب الحروب الصليبية إلى تطور واضح في حركة الاستشراق يدّوّافع دينية. وقد أقبل بعض الصليبيين، بعد أن لمسوا أخلاق المسلمين وتسامحهم، على اعتناق الإسلام. فكتب المستشرق توماس أرنولد<sup>(١)</sup> تحت عنوان «حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين»: إلى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التي وصفت بأنها قد دخلت في نطاق تأثير الحكم الإسلامي عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسيّة والطوائف الخارجّة عن الدين التي تفرّعت عنها. ولكن بانتهاء القرن الحادى عشر الميلادى انضم إلى أهالى الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهاائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية، واستقروا في مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التي أسسها الصليبيون، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان. وفي غضون تلك الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء.

أما سائر الصليبيين الذين لم يعتنقوا الإسلام، فقد تأثروا بالأخلاق والطبع الإسلامية، ونهلوا منها الكثير. فقد كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهادنة والسلام على غاية التسامح وحسن المعاملة، مع أن الصليبيين باقرار مؤرخיהם كانوا مثال الخشونة في الطبع. وأفضت معاملة المسلمين لأعدائهم، إلى أن قلد الصليبيون

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٨ .

المسلمين في لباسهم وعاداتهم ، ومنهم من تعلم اللغة العربية وأجادها ، وجرى على متوال المسلمين في كثير من شئون حياتهم .

تحدث المستشرق ( توماس أرنولد ) ( ١ ) عن أثر الإسلام والمسلمين في أفكار الصليبيين وأخلاقهم ، فقال : إن زيادة اختلاط المسيحيين بال المسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصوصهم تقديرًا أخذ ينمو على مر الزمن ، ثم ما كان من كثرة تقليله الفرنجة المقيمين في الأراضي المقدسة للشرقيين في عاداتهم وأساليب حيائهم مما أثر في الأفكار الدينية ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسارك السمح الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العصيّة الإسلامية . بل إن علماء الlahوت المسيحي حين أدى اختلاطهم بال المسلمين اختلاطًا شمسيًا إلى تكوين رأي أكثر انصافًا عن ديانة المسلمين ، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس ، وأثار ألوان الزندقة ، فليس بغرير أن ينجذب الكثيرون إلى حظيرة الإسلام ، وكان عدد المرتدين عن المسيحية في القرن الثاني عشر الميلادي كثيراً كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها ( مجالس قضاء بيت المقدس ) :

وكان لهذا أثره في حركة الاستشراق ، وبدأت الدوافع الدينية للاستشراق تنكمش قليلاً .

فقد أدى النزاع في الغرب المسيحي بين السلطتين الدينية والزمنية ، أي بين الكنيسة والدولة ، إلى الفصل بينهما ، وإلى اقامة سلطان الدولة على انكار سلطان الكنيسة . وكان لهذا التنازع على السلطان أثره في التفكير الغربي كله . وفي مقدمة النتائج التي ترتب على هذا الأثر ما كان من تفريق بين الشعور الإنساني والعقلي

( ١ ) الدورة إلى الإسلام ص ١١٠ .

الإنساني ، وبين منطق العقل المجرد ومقررات العلم الواقعى المستمدة إلى الملاحظة المادية . وكان لانتصار التفكير المادى أثره البالغ فى قيام النظام الاقتصادى أساساً رئيسياً للحضارة الغربية . فقد نشأ من ذلك أن قامت فى الغرب مذاهب ت يريد أن تجعل كل ما فى عالم العالى خاضعاً لحياة هذا العالم الاقتصادى كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الإنسانية فى أديانها وفنانها وفلسفتها وتفكيرها وعلمها بوحى ما كان من مد أو جزر اقتصادى فى مسألة أهمها المختلفة . أما المسألة الروحية فهى فى نظر الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة . هذا بينما تقوم الحضارة الإسلامية على أساس روحي ، والنظام الروحى فيها هو أساس النظام التهذيبى والأخلاقى (١) .

وفى العصر الحديث ، ظهرت دوافع أخرى للاستشراق ، منها الدوافع الاستعمارية ، والدوافع العلمية البحثة المخلصة . وقد انكمشت الدوافع الدينية وتضاءلت ، ولكنها لم تنعدم . وجوازحر كتاباتهم أن الإسلام هو المسئول عما أصاب العالم الإسلامي فى العصور الحديثة من تأخر حضارى ، بينما كانت المسيحية هي سبب ما شهدته أوروبا من نهضة حضارية . وهؤلاء المستشرقين المبشرين ، يدعون المسلمين إلى أن يفصلوا حياتهم الدينية عن حياتهم الدنيوية .

ومن هؤلاء المستشرقين المبشرين المحدثين ، نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية ، أو يستخدمون غيرهم فى سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية ، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية ، ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والاسلامية ، وبالتالي إلى إبراز نواحي النشاط الثقافى للغرب ،

---

(١) دكتور محمد حسين هيكيل : حياة محمد ص ٥٠٠ ( طبعة دار الكتب المحرية سنة ١٩٣٩ ) .

وتفضيلها على أمثالها في تاريخ العرب والاسلام ، وما غايتها من ذلك الا خلق تخاذل روحي ، وشعور بالنقض في نفوس الشرقيين ، وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمهدية المادية الغربية (١) .

ويولع المستشركون بتتبع اللهجات العامية في البلاد العربية الاسلامية ودراستها والتنويه بها ، وهم يقصدون من ذلك أن يمكنوا لها حتى تطغى على اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، ولغة القومية العربية الموحدة . وتراءهم يولعون بتناول مواطن خاصة ينالون فيها من الاسلام ويرضون به كما يولعون بتتبع الأساطير والقصص التي لا تثبت صحتها ، ليبنيوا منها أحكاما كلها أوهام وخيالات واسراف في اصدار النتائج والاحكام .

ويحاول هؤلاء المستشرقيين دائمًا تصوير الاسلام في صورة الدين الجامد الذي لا يصلح للتطور أو التجديد ، ومن كيدهم في هذا الباب أنهم يحكمون دائمًا على الاسلام من واقع المسلمين ، فهم لا يصوروه الاسلام من منابعه ومصادرها ، بل يصوروه من واقع المسلمين السياسي . وهم بطبيعة الحال يختارون البيئات الاسلامية التي نالها الضعف أو الهزال لهذا السبب أو ذاك ، ويجعلون هذه البيئات الضعيفة نموذجا للإسلام (٢) .

أصبحت كتابة هؤلاء المستشرقيين تدور حول أن أوروبا هي سيدة العالم ، وعلى أن رجلها الأبيض هو المسئول عن الأسود والأصفر ، وأن الله خلق العالم قسمين : قسما أوروبيا سائيا ،

(١) انظر كتاب ( التبشير والاستعمار ) تجد كثيرا من التفصيلات عن هؤلاء المستشرقيين المبشرين .

(٢) دكتور أحمد الشرباصي : التصوف عند المستشرقيين ص ١٠ .

ووقسام غير أوروبي منحطا ، ومن أجل ذلك يؤرخون أوروبا بأنها المركز وما حولها نقط على المحيط ، وإذا جازوا للتاريخ الإسلامي اقتضبوه أو حرفوه (١) .

وخير ما يصور محاولة بعض المستشرقين من أن يلصقوا بالاسلام كل تأخر حضاري أصاب العالم الإسلامي ، كتاب ( الاسلام في التاريخ الحديث ) للمستشرق الأمريكي المعاصر ( ولفرد كانتوبل سميث ) الذي كان مديرًا لمعهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجیل بمدينة مونتريال بكندا (٢) . فهو يقول في كتابه : للإسلام في العصر الحديث مشكلة وأزمة ، فالمسلمون يحسون أن خطأ ما وقع في تاريخهم ، فانحرف به عن طريقه السوي ، وأن ثمة مفارقة بين الدين الذي أنزله الله وبين التطور التاريخي للعالم الذي يسيطر عليه ويصرف أموره ، وانهم يفكرون في كيفية تقويم ما اعوج من تاريخهم حتى يعود سيره من جديد في كامل قوته (٣) .

ثم يقول ( سميث ) : واذن فالمأزق الإسلامي ازاء العصرية يحسه المثقفون بعمق ، فقد مضى أكثر من قرن من الزمان منذ بدء الحاجة الى الدفاع عن العقيدة ضد الضغط التاريخي والتأخر الداخلي . واليوم ويرغم التقدم في نواح كثيرة نرى الهجوم على الاسلام أكثر شدة ، نرى هجوما من الخارج ، ومن الداخل ليس هجوما من أعدائه الأجانب الخارجيين بل كذلك هجوما على الظاهرة التاريخية للإسلام

(١) أحمد أمين : يوم الاسلام ص ١٧٢ .

(٢) فضي مولف هذا الكتاب عاما في هذا المعهد كأستاذ زائر في عام ١٩٦٣ - ١٩٦٤ .

(٣) الاسلام في التاريخ الحديث ص ٢٣ .

كحقيقة واقعة وعلى القوة الداخلية لحقة الجوهرى (١) .

ويمتدح ( سميث ) الأتراك المهدىين لأنهم تخلوا عن الحضارة العربية الإسلامية وأقبلوا على الأخذ بالحضارة الأوروبية ، فهو يقول عنهم : يعنيونا موقف تركيا من التصدى للمدين الإسلامى ، فالأتراك لم يرتسوا عن دينهم ولم يهجروه ، وإنما أخذوا يعيشون النظر فيه . معيدين بحثه من جديد ٠٠٠ ان الأتراك هم الشعب المسلم الوحيد الذى أدرك على وجه التحديد ما يحتاج اليه ، وهم الشعب المسلم الوحيد أيضا الذى استطاع أن يشكل أساسه الفكرية والاجتماعية بشكل يتناسب مع اوضاع المدنية الحديثة . وقد سبق أن قدمنا أن الإسلام يعني كثيرا بال بتاريخ ، وأن الشق التركى من التاريخ الإسلامى هو الشق الوحيد فى المرحلة المعاصرة ، الذى يستطيع أصحابه أن يرقبوه دون أدنى ارتياح ، وهو الشعب الوحيد كذلك بين الشعوب الإسلامية الذى يستطيع أن يطمئن إلى أن مشاركته فى التاريخ الإسلامى الحديث كانت ذات أثر فعال (٢) .

### الساقع الاستعمارية :

يفضل بعض المفكرين استخدام لفظ ( التسلط ) بدلا من ( الاستعمار ) ، ويعرّفونه بأنه « تحكم شعب فى غيره من الشعوب » ، وأداة هذا التسلط المال والقوة ، ومسوغاته ما يزعمون من وجود حق للقوى على الضعيف . ويكون التسلط « قروننا ، فى معظم حالاته بالظلم والطغيان والقسوة (٣) .

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) الأمير مصطفى الشهابي : الاستعمار ج ١ ص ٢٥ ( من مطبوعات معهد الدراسات العربية ) .

وللتسلط أشكال أهمها ثلاثة : سياسي ، وديني تقني ، واقتضادى أما التسلط السياسى فهو أن يبسط شعب سلطانه على شعب آخر بالحرب أو المعاهدات ، ابتعاد لنفوذ السياسى والمحمد والعظمة واستخدام الشعوب المحكومة جنودا فى المروب ، وأمثال ذلك من الأغراض السياسية ، وقد يكون هذا التسلط منبعثا عن الاعتقاد بفلسفة القوة والمنذة ، أى فلسفة هيجل ونشه ولارو سفوكولد وغيرهم ، من يدينون بضرورة معاونة الطبيعة على افتدى الصعييف ، وعلى تسلیط الأصلح للبقاء . وهذه الفلسفة لا تقييم وزنا الا للقوة ، وتجعل الحق خاصعا لها . وكثير من الدول الأوروبية الاستعمارية يسيرها مستعمرون يدينون بفلسفة القوة والمنذة ، وكل منهم يعتقد أن شعبه هو أرقى الشعوب وأصلحها ، ولهذا وجب على حكومته أن تسلط وتستعمر ، كما وجب على الشعوب الضعيفة أن تخضع . وهذه الفلسفة لا تجيزها الأديان أو الأخلاق .

أما التسلط الديينى والثقافى فهو بسط شعب سلطانه السياسى على شعب آخر بالحرب أو بغير الحرب لغاية دينية أو ثقافية . فاما المروب الدينية فمعروفة ، وأما الحرب التى ترمى الى بث فكرة ثقافية فمثالها الحرب التى أثارها رجال الثورة الفرنسية على هولندا وسويسرا وبلجيكا وإيطاليا باسم حرية الشعوب والخلاص من أصحاب التبغان ولكن الأوروبيين قلما يتذمرون بفكرة دينية أو ثقافية الا لغاية سياسية . مثل ادعاء الحكومة الفرنسية حينا حماية النصارى فى الشرق ، واغداق فرنسا المال على مدارس اليهود وعيين والعازريين والاخوان المريمين والكتوشين وتشجيع المدارس الالايك فى البلاد العربية ، إنما يرمى هذا كله الى تنفيذ أبناء تلك البلاد بشقاقة فرنسية بحثة ، وابعادهم عن الثقافة العربية ، حتى يظلوا على زعمهم حربا على بلادهم وعشرة فى سبيل استقلالها وأداة لتسلط فرنسا السياسي . وقد حاولت انجلترا حماية

الأشورين في العراق لغاية سياسية فلم تفلح . وما المدارس والمستشفيات والرهبانيات الإيطالية في الشام إلا أدوات سياسية (١) .

أما التسلط أو الاستعمار الاقتصادي فهو بسيط شعب سلطانه السياسي على شعب آخر بالقوة لغاية اقتصادية . وقد أدى الانقلاب الصناعي في أوروبا إلى حركة استعمارية واسعة ، للاستيلاء على المواد الأولية في المستعمرات ، وفتح أسواق جديدة ، وغير ذلك من الأهداف الاقتصادية الاستعمارية المعروفة .

بدأت الأطماء الاستعمارية الأوروبية في العالم العربي والاسلامي ، منذ مطلع التاريخ الحديث ، حينما كان الشرق العربي خاضعاً لحكم العثماني . وسارت حركة الاستشراق مع هذه الحركة الاستعمارية في طريق واحد . وكما غزت الدول الأوروبية الشرق الإسلامي بالسيف وال الحديد والنار ، فقد غزته أيضاً حضارياً وفكرياً . وبدأ صراع حضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية . وقد صور المرحوم الأستاذ أحمد أمين (٢) هذا الصراع فقال : لم يقتصر غزو أوروبا على مسائل الحضارة المادية ، بل أيضاً غزت الشرق بالأفكار والمعانٰى ، فقد اقتبس الشرقيون من الحضارة الأوروبية التعليم وأراء الأوروبيين في علم النفس وعلم الاجتماع والأخلاق وما إلى ذلك ، وإذا كان المسلمين من ذوى حضارة قديمة مأكولة من حضارة العرب وما تابع عليهما من فرس وأتراك ونحوهما ، وما اقتبسوه من فلسفة يونانية ورومانية ، فقد اضطربت في أذهانهم وحياتهم المادية الحضارة القديمة التي عاشوا عليهما قروننا ، مع الحضارة الحديثة اضطرباً شديداً يختلف باختلاف الأهم

(١) الشهابي : الاستعمار ج ١ من ٢٦ - ٢٧ .

(٢) يوم الإسلام من ١٥٨ - ١٥٩ .

والأفراد في الأمة الواحدة . وكان اقتباس القسم المادي من الحضارة أكبر من اقتباس القسم المعنوي . وإذا كان هذا الاضطراب حادا ، كان المثير على المدنية الغربية سيراً أعموج .

أصاب الدولة العثمانية ضعف شديد ، وأدى ضعف السلطة المركزية في العاصمة الاستثناء إلى تفكك الأطراف والولايات ، وتطلع بعض الحكام إلى الاستقلال وإلى التوراة ضد الدولة العثمانية ، مستعينين بدول أجنبية . ففي أوائل القرن السابع عشر ثار الأمير فخر الدين المعنوي الثاني في لبنان على الحكم العثماني ، واستعان بamarat مسيحية مثل توسكانا ونابولي وأسبانيا والبابوية لتعيينه على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وهي دول كانت الروح الصليبية لا تزال مسيطرة على علاقتها بدول المسلمين . فعززت الدولة العثمانية على القضاء عليه ، ففر لاجئاً إلى حليفه أمير توسكانا ، ونجحت الدولة العثمانية في قتله سنة 1635 ، ولكن اللبنانيين ما زالوا يعتبرون فخر الدين بطلاً قومياً كبيراً ، إذ دافع عن كيان لبنان واستقلاله ، وسعى لدعم هذا الاستقلال بالاتصال ببعض الدول الأوروبية ، واقتباس بعض مظاهر الحضارة الأوروبية في بلاده .

وفي مصر ، ثار (على بك الكبير) على الحكم العثماني ، وتحالف مع الشيخ ظاهر أمير عكا العثماني ، وتحالف الأميران مع الروسيا . وفي العراق ، اعتمد داود باشا مع الانجليز في توطيد دعائم حكمه والثورة على العثمانيين (1817 - 1831) (١) .

وكانت الحماية الفرنسية على مصر والشام هي الصورة اليجابية العسكرية لبداية الأطماع الاستعمارية في الشرق العربي .

(١) انظر كتابنا (القومية العربية من الفجر إلى الظهر) ص ١٣٤ - ١٣٥ .

ونستطيع أن نقول أنها أيضاً بداية الاستشراق القائم على دوافع استعمارية . وقد قدم الفرنسيون مزودين بمدنية الحديثة التي تقوم على العلم والاختراع والحرية والمبادئ الديموقراطية . وتقابلاً بهذا كلها مع مدنية العثمانيين ، فكانت الغلبة للمدنية الحديثة . ومنذ ذلك الوقت أدرك العرب والمسلمون أهمية الحضارة ، وأيقنوا أنه لا حياة لشعوب الشرق العربي إلا باتخاذ الوسائل الحديثة حتى تقاوم الغرب بأساليبه .

كانت الحملة الفرنسية أول مشروع رمى إلى تكوين دولة شرقية من الأجزاء العربية التابعة للدولة العثمانية ، وقد استغل بونابرت مقومات العروبة فليجاً إلى اللغة العربية في كتابة هند سوراته ولوائحه ، وطبع كتباً في تعليم اللغة العربية وهبجهاها بالطبع الفرنسيية المرافق للحملة ، وشجع العناصر العربية في البلاد فكون منها دواوينه وجعلهم أهل مشورته .

بعد الفتح العثماني للدول العربية الإسلامية ، استأنف الآتراك بالحكم ، ولم يكتفوا بعدم اشتراك الشعوب العربية في حكم بلادها . بل أنهم أقصوا العرب عن مناصب الحكومة تماماً ، اذ كان نظرية الحكم التركي أن هناك طبقتين متميزتين : طبقة الحكام الآتراك ، وطبقة المحكومين أو الفلاحين .

ثم جاء نابليون إلى مصر وأعلن فكرة اشتراك الشعب في الحكومة . وأنشأ نابليون ديوان القاهرة من العلماء وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة ، كما أنشأ دواوين الأقاليم . ولم يتنازل الشعب عن هذا الحق بعد جلاء الفرنسيين (١) .

كانت الحملة الفرنسية ( ١٧٩٨ - ١٨٠١ ) أول غزو أوربي

---

(١) انظر كتابنا ( القومية العربية ) من ٦٦ .

للمشرق العربي ، وقد صحب معه عدداً كبيراً من العلماء المتخصصين في سائر فروع المعرفة ، فمنهم الأنثريون المستشرقون والمهندسوں والأطباء والمترجمون اللبنانيون والمصريون والسوريون ، من أمثال : ميخائيل صباغ ( ١٧٠٨ - ١٨١٦ ) الذي اتصل بالمستشرقين ( دى ساسى ) و ( كاترمير ) وعمل في المكتبة الوطنية بباريس ، والياس بقطر من مصر ( ١٧٤٨ - ١٨٢١ ) وهو أستاذ العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومصنف المعجم العربي الفرنسي ، ونقولا الترك ( ١٧٦٣ - ١٨٢٨ ) صاحب كتاب ( حرب بونابرت مع النمسا ) وغيرها من الكتب (١) . وروفائيل زخور ( ١٧٥٧ - ١٨٣١ ) المولود في القاهرة وهو من أصل حلبي وكان يقوم بتعليم اللغة العربية في باريس ثم جعله محمد على فيما بعد مديرًا لمطبعة بولاق ، فمترجمًا في مدرسة الطب .

وأمر نابليون بتأليف المجمع العلمي المصري ، وتأسيس مطبعة عربية كان قد استصفاها من الفاتيكان لطبع تصريحاته وبلاغاته ونشراته . كما أصدر نابليون ثلاثة صحف واحدة منها بالعربية وأنشأ مكتبة ومتحفاً ومخابرًا ( معملاً ) ومصنوعاً ومرصداً ومسرحًا ، فتحت أبوابها للمصريين . ونشر العلماء الفرنسيون بحوثهم ورسومهم وخرائطهم في كتاب ( وصف مصر ) . كما حل ( شامبليون ) رموز الكتابة الهيروغليفية بقراءته حجر رشيد ( ١٨٢٢ ) وألف لها أجروممية ومعجمًا ( ١٨٣٢ ) فوضع بذلك أساس علم الآثار المصرية ، ومهد السبيل إلى العلماء للتنقيب عن عالم عظيم مفقود (٢) .

(١) مثل تملك جمهور الفرنساوية ( طبعة باريس ١٩٣٩ ) ، وتاريخ محمد باشا الجزار ( مخطوط ) وحوادث الزمان في جبل لبنان ( مخطوط ) .  
 (٢) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

ورغم جهود العلماء الفرنسيين ، الا أن موقف المصريين العدائى من الحملة الفرنسية قد غطى على هذه الجهود ، فقد قدم الفرنسيون الى الشرق العربى غازين فاتحين ، وكانوا مختلفين عن أهالى البلاد فى الدين والجنس واللغة ، ولذا ثارت الروح القومية فى مصر ، واستبسيل فى الدفاع عن الوطن العربى . وقامت ثورتان عارمتان فى القاهرة كانتا من عوامل اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر .

ومن الطريف أن نابليون بونابرت ظهر أمام المصريين بصورة المستشرق ، فقد ظاهر باعتناق الاسلام ، وشارك المصريين احتفالاتهم الدينية وخاصة المولد النبوى الشريف ، وارتدى العمامه والجبة والقططان ، وزار علماء الأزهر فى بيتهم ، وتناول طعامه بيدهيه مثلهم كما اعتنق ( جاك مينو ) القائد الفرنسي الاسلام ، وتزوج من مصرية ، ولكن هذه الوسائل لم تقنع المصريين واستمرروا فى عدائهم للحملة الفرنسية . وظهرت الروح الوطنية المصرية واضحة ، حتى أن المصريين أصبحوا يعملون على الاستقلال أيضا عن الدولة العثمانية .

وفي فترة حكم محمد على فى مصر ، توافد عدد كبير من المستشرقين ، فقد رأى محمد على تدعيم الجيش المصرى من أجل تحقيق سياسة تكوين دولة واسعة يحكمها طوال حياته ويتوارث أبناؤه الحكم فيها من بعده ، كما رأى محمد على أن ينشئ المعاهد والمدارس العليا من أجل مد الجيش بحاجاته من الأطباء والمهندسين والمهنيين وغير ذلك . واعتمد محمد على على خبراء أجانب أو روبيين فى تدريب الجيش ، وفي المعاهد والمصانع ، ولذا قدم الى مصر كثير من هؤلاء الخبراء ، واستشرق بعضهم ، وعاش طوال حياته فى مصر وتأثر بالحياة الشرقية .

ومن أشهر هؤلاء ، الدكتور كلود بك الذى قام بإنشاء مدرسة الطب فى مصر سنة ١٨٢٧ الذى استعان بكثير من الأجانب

الأوروبيين ، معظمهم من الفرنسيين ، ولكلوت بك كثيراً من المؤلفات الطبية القيمة ، وله فضلها في مكافحة الكوليرا في سنة ١٨٣٠ والطاعون سنة ١٨٣٥ . ومن هؤلاء المستشرين أيضاً الكولونيل سيف ، وهو فرنسي الأصل ، وعهد إليه محمد على بتنظيم الجيش المصري على الأساليب الحديثة ، وقد أصبح اسمه ( سليمان باشا الفرنسي ) (١) .

رأى السلاطين العثمانيون أن يقروا بقبضتهم على العالم العربي بحيث تظل الولايات العربية خاضعة للحكم العثماني إلى الأبد . واتبعوا في سبيل ذلك وسائلتين : الأولى الاصلاح ، والثانية الدعوة إلى الجامعة الإسلامية . وقد أثرت الوسائلتان في حركة الاستشراق ، وأدت إلى اتساعها ، وإلى تدفق المستشرين على أقطار الشرق العربي .

بدأت حركات الاصلاح في تركيا في عهد السلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩ - ١٨٠٧ ) واتجهت في أول الأمر نحو اصلاح الجيش بدخول النظم الأوروبية الحربية الحديثة ، ولكن الانكشارية وقفت عقبة في سبيل الاصلاح وأرغموا السلطان على التنازل عن العرش . ثم تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء تماماً على الانكشارية ، وكون جيشاً قوياً استطاع أن يقوم بأعمال حربية عظيمة في قتاله الوهابيين في نجد ، واليونانيين في المورة ، ثم قتال محمد على . ثم أصدر خلفه وابنه السلطان عبد الحميد ( ١٨٣٩ - ١٨٦١ ) منصور ( الكلخانة ) وفيه يؤمن جميع رعايا الدولة العثمانية على اختلاف توصياتهم وأديانهم ، على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . ثم أصدر السلطان عبد العزيز ( التنظيمات الخيرية ) .

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ج ٢ ص ٢٩٢ ( الطبعة الثانية ) ، القاهرة ١٩٤٧ .

وخلال حركة الاصلاح : تنظيم التعليم ، وانشاء مدارس عاليه .  
وتنظيم القضاء ، وانشاء محاكم تجارية و مختلفة ، وتنظيم شئون التجنيد ، وتنظيم ميزانية الدولة ، والشئون الادارية ، وحددت اخصاصات الولاية وكبار الموظفين بحيث يرتبطون جميعا بالحكومة المركزية .

اتسعت حركة الاستشراق ، واستعانت الدولة العثمانية بكثير من الخبراء الأجانب في جميع الشئون . وارتبط الاستشراق بازدياد اطماء الدول الأوروبيه في الولايات العربية الخاضعة للعثمانيين ، وسعت وراء نيل امتيازات واسعة ، وتدخلت لتأييد بعض الاطواف مما أضعف هيبة الدولة العثمانية ، وازدياد حركة الاستشراق . مثل اطماء الفرنسيين في سوريا ولبنان وشمال افريقيا ، والانجليز في مصر والسودان وال العراق والخليج الفارسي والبحر الاحمر . والالمان في استغلال المرافق الاقتصادية للدولة ، والايطاليين في ليبيا .

رأى الاتراك أن الطريق إلى الاصلاح هو توطيد نفوذهم في الولايات العربية ، مستفيدين من الحضارة الأوروبيه والخبراء الأجانب . بينما كان العرب يرون أن الاصلاح هو احياء الروح الوطنية وبعث الروح القومي والتغنى بأمجاد العرب واحياء التراث العربي ، ولذا لم يرض الكثير من العرب من تدفق هؤلاء الخبراء والمستشرقين الأوروبيين على الشرق العربي .

وفي خلال حركات الاصلاح ، لم تتوقف الدول الأوروبيه عن مد نفوذها في البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها . وكانت المدارس الأجنبية تؤسس في المدن والقرى المسيحية فتتجذب أبناء العرب غير المسلمين . وقد وجدت اللغة العربية مؤثلا في المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ،

وانتشر تعليمها بين المسلمين أكثر من انتشارها بين المسلمين .  
وذلك لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم ، بل ظلوا  
يرسلون أولادهم إلى المدارس الحكومية ، ولغة التعليم في هذه  
المدارس كانت اللغة التركية (١) .

خابت آمال العرب في حركات الاصلاح على الطريقة التركية ،  
مما أدى إلى توتر العلاقات بين العرب والأتراك . فرأى السلطان  
عبد الحميد أن يلجأ إلى طريقة جديدة تربط العرب بالأتراك ، وهي  
( الجامعة الإسلامية ) .

ففي منتصف القرن التاسع عشر تعرض العالم العربي  
والإسلامي للأطماع الأوروبية ، فقد فتح الفرنسيون الجزائر سنة  
١٨٣٠ ، واسسوا في الروسية على القوقاز ، وسيطرت إنجلترا على  
الهند ، وهو لندن على آندونيسيا . وخفف المسلمون أن يسيطر  
الأوروبيون على العالم الإسلامي جميعه ، ولذا فكر المسلمون في  
جمع كلمتهم لوقف أمام التيار الأوروبي الاستعماري فنشأت فكرة  
الجامعة الإسلامية .

وساعد على ظهور فكرة الجامعة الإسلامية ، ظهور جمال الدين  
الأفغاني ( ١٨٣٩ - ١٨٩٧ ) فقد كانت تعاليمه وآراؤه من الأسس  
التي قامت عليها فكرة الجامعة الإسلامية . وقد قامت دعوته على  
أساسين : أولهما اصلاح حال المسلمين وتلقيهم الحضارة الأوروبية  
الحديثة . وثانيهما تحرير الشرق من سيطرة الغرب ، ولفت أنظار  
المسلمين إلى ما وصلوا إليه من ضعف وتأخر نتيجة عدم مسايرتهم  
الحضارة الأوروبية الحديثة حتى طمع الأجانب في بلادهم . ودعا  
جمال الدين المسلمين إلى الاتحاد ليقفوا في وجه الاستعمار .

---

(١) من محاضرات المرحوم الاستاذ ساطع الحصري .

وكانت زيادة الأطماء الأوروبية في العالم العربي والاسلامي عاملا هاما في نجاح الجامعة الاسلامية . ورحب بالفكرة زعماء وطنيون مثل مصطفى كامل في مصر ، كما ساعد على انتشارها تقدم طرق المواصلات ، ونهاية الصحافة . كما قامت العوامل الاقتصادية بدور كبير في نجاح الجامعة الاسلامية . فقد كانت الأطماء الاقتصادية الأجنبية تسير جنبا إلى جنب مع الأطماء السياسية ، فقد تدفقت على الأقطار العربية والاسلامية رؤوس الاموال الأجنبية ، واستثمروا الأجانب مرافقتها ، وأدى الاستعمار الاقتصادي إلى استعمار سياسي ، ورأى المسلمون أن الجامعة الاسلامية تخلصهم من الاستعمارين على السواء . ولكن سقوط السلطان عبد الحميد بعد عزله في سنة ١٩٠٨ كان نذيرا بنهاية فكرة الجامعة الاسلامية .

فقد خابت آمال أوروبا في الشرق الأقصى . أى الصين واليابان – فاتجهت آمالها الاستعمارية إلى الشرقيين الأوسط والأدنى ، فصوبت اليهما سهام الاستعمار . ثم نهض المسلمون في بلادهم . وخشى الاستعمار الأوروبي نتائج هذه النهضة ، وعندئذ أصبح للجامعة الاسلامية معنيان : أحدهما في أذهان المسلمين في الشرق ، والثانى في أذهان الأوروبيين في الغرب .

فأما المعنى الأول لفكرة الجامعة الاسلامية في أذهان المسلمين فهو التهوض ببلاد الاسلام فهو ضا تستيقظ به من سباتها وتنخلص من النفوذ الأوروبي الذي كان عاملا حقيقيا في تخلفها، لا في تقدمها كما زعم القوم . وأما المعنى الثاني لفكرة الجامعة الاسلامية في نظر الأوروبيين فهو الخوف من أخطار الجامعة الاسلامية . فقد وجد المسلمون في هذه الفكرة السبيل الوحيد لإنقاذهم من براثن الاستعمار الأوروبي (١) .

(١) من مقال الدكتور عبد الطيف حمزة بجريدة الاهرام بعنوان ( الجامعات الاسلامية والجامعة العربية ) .

اجتهد المرحوم الأستاذ أحمد أمين (١) في تقدير الحضارة الأوروبية ودورها في حضارة العالم الإسلامي ، فقال : كانت الحضارة الأوروبية ذات أثر تقدمي كبير في العالم الإسلامي ، ولو لاها لظل يرسف في قيوده التي كان يرسف فيها ، ولكنها لا تخلي من عيوب ، فقد باعدت بينه وبين الحضارة الإسلامية القديمة ، ولم تكن ناتجة من نفس المسلمين كما كانت الحضارة الغربية ناتجة من نفس الغربيين ، بل هي دخيلة عليهم دخول الأجنبي بلادهم ، ومثلها مثل شجرة أريد تضخيمها بأوراق شجرة أخرى من الخارج لا بنموها الطبيعي من الداخل .

ان الحضارة الغربية قد نشأت ولها من ذاتها غالباً عناصرها وخصوصيتها نشوا طبيعياً متدرجًا مجتازة الأدوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء ، أما الشرق فهو في كثير من مواضع الانقلاب يطفر في تحوله طفوراً إذ أن ما يأخذه عن الغرب ويقتبسه منه دفعه واحدة قد نقضت على تكامله عند الغربيين الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المتراقي على تطور الشرق هذا التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والمديني وغير ذلك .

ان حركة الاستشراق وصلت إلى الشرق العربي تحت دوى المدافع وصليل السيف ، فاستقبلها المسلمون والعرب استقبالاً سبيلاً ، فقد نظر المسلمون إلى أفكار المستشرقين على أنها أفكار مسيحية ، لا على أنها أفكار أوروبية أو عالمية وكلما ازداد ضغط الدول الأوروبية على الشرق العربي ، وعامل الأوروبيون العرب وال المسلمين معاملة سيئة ، واحتكروا مواردهم الاقتصادية ، زاد عداء العرب للمستشرقين وأفكارهم . وتأثرت حركة الاستشراق بالصدام

(١) يوم الاسلام ص ١٦٠ .

الذى ظهر بين الشرق والغرب ، وبين الأطماء الاستعمارية الأوروبية ، والروح القومية العربية التى ترمى الى تحقيق الاستقلال والتحرر مما هو أجنبى .

### الموافع العلمية :

دخل المستشرقون ميدان تاريخ العرب والاسلام منذ المحطة التى اتجهت فيها ميولهم الى الكتابة عن الشرق لاغراض غير علمية أول الأمر ، كما رأينا فى هذا الفصل . ثم استحالت حركة الاستشراق الى أغراض علمية بعد ذلك . واذا كان الغربيون قد غزوا بلاد العرب والاسلام تلك الغزوات السياسية والعسكرية والاستعمارية التى نعرفها ، والتى أذن الله لنا أن نتحرر منها ، فان المستشرقين منهم قد غزوا تاريخ العرب والاسلام ، فأخذوا يقلبون وجوه البحث فيه ، وألفووا فيه كثيرا من الكتب (١) .

يحدد المستشرق ( بارت ) (٢) منتصف القرن التاسع عشر موعدا أصبح فيه الاستشراق علم ، بعد أن تخلص المستشرقون من الآراء القديمة ، ومن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتى ، وبعد أن اعترفوا لعالم الشرق بكيانه الخاص وحياته الخاصة ، وعند ذلك اجتهد المستشرقون فى نقل صورة موضوعية للشرق ، وفهم الموضوعات الشرقية فيما موضوعيا . واستمرت جهود المستشرقين نحو تنقية الاستشراق من شوائبها الدينية والاستعمارية ، حتى تارينا العاصر ، حيث وصل الاستشراق الى مرحلة التحول النهائى ، فأصبح علما قائما على النقد التاريخى .

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٥ .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الالمانية ص ١٧ .

ووحدد ( بارت ) (١) مهمة المستشرق المعاصر ، فقال ان واجبه هو : اختراق الأفق الفكري الذى تفرضه البيئة حولنا ، والقاء نظرة الى عالم الشرق ، لكي نتعلم من الكيان الغريب علينا كيف نحسن فهم امكانيات الوجود الانساني ، وكيف نحسن بهذا فهم ذاتنا نحن في نهاية المطاف .

كان استقلال الدول العربية والاسلامية من عوامل اتجاه الاستشراق هذه الوجهة العلمية ، فقد تخلى كثير من العرب وال المسلمين عن نظرة الشك والخوف والحدر التي كان ينظرونها الى الاستشراق والمستشرقين . كما أن انهيار النفوذ الأوروبي الاستعماري في معظم الدول العربية والاسلامية ، صرف المستشرقين الى الجوانب العلمية ، فقد انهار الاستعمار الذى كان سبب الاستشراق ، ولذا زأى كثير من المستشرقين أن يصبح العلم والحقيقة أساسا لاستشراهم .

وأصبح كثير من المسلمين ينظرون الى الحضارة الأوروبية ، على أنها حضارة المستعمرين الطاغفين ، بل على أنها حضارة عالمية حديثة ، فقد انهار الرباط الذى كان يربط الاستعمار والحضارة الغربية . ومن ثم تغيرت النظرة الى التاريخ العربي والاسلامي .

وفي ذلك يقول المستشرق الامريكي المعاصر ( ولفرد كانتوين سميث ) (٢) : ان آراء القرن التاسع عشر قد تلاشت أمام أفكار القرن العشرين بعد نهضة العالم الاسلامي . وببدأ اقبال المسلمين على الحضارة الأوروبية ، التي كان قد أدخلها المستعمرون فقد فقدت هذه الحضارة وصفها القديم بأنها ( غريبة ) وأصبحت حضارة ( عصرية عالمية ) ، انتظمت المسلمين وأصبح رفضها بمثابة الرغبة في العزلة ، أو بعبارة أخرى الزهد في الحياة في القرن العشرين .

(١) المصدر السابق ص ١٣ .

(٢) سميث : الاسلام في التاريخ الحديث ص ١٠٠ - ١٠١ .

وان معرفة الاسلام معرفة حقة تنتهي الى القول بأن استقلال المسلمين لا يعني العزلة ، فالحرية مشاركة .

ولكن رواسب الأطماء الاستعمارية الأوروبيية لا تزال باقية في نفوس بعض العرب وال المسلمين ، فظلوا ينظرون نظرة شك وحذر إلى الحضارة الأوروبية وأفكار المستشرقين ، فيقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين (١) : أخفقت محاولات التوفيق بين الاسلام والحضارة الحديثة ، ولكن فشلها لا يعود إلى تعاليم الاسلام نفسه بل إلى أسباب أخرى أهمها أن الحضارة الحديثة تقدمت اليهم أول ما تقدمت وهي تحمل في أحدي يديها المخترعات الحديثة ونتائجها في العلوم والفنون ، وفي الأخرى وسائل الاستغلال والاستعمار ، فلذلك قبلها المسلمين كارهين مكرهين ، ولو تقدمت اليهم على غير هذا الوجه لقبلوها قبولا حسنا كما قبلوا الحضارة اليونانية والفارسية والتركية من قبل ، والثالث أنها جاءتهم على يد بعض المسيحيين المتضطربين الذين اكتفوا بنارهم من أيام الحروب الصليبية إلى اليوم .

أصبح الاستشراق في العالم الأوروبي الحديث كلها مادة علمية معترف بها من الجميع . وأصبحت مادة علمية بجدية بالوجود ، وهي ممثلة في كل جامعة من الجامعات بكرسي رسمي يشغله أستاذ ، ثم هناك عدد عظيم من وظائف المدرسين والمعيدين في تخصص الاستشراق ، إلى جانب الأستاذة . ويعنى هذا أن الناشئة من المستشرقين يلقون ما يؤمن مستقبلاهم من الناحية المالية نوعا ما . والمجتمع الأوروبي ، والحكومات الأوروبية ، يضع تحت نصرف المستشرقين الامكانيات الالزامية لاجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاط المستشرقين التعليمي في هذا المضمار (٢) .

(١) يوم الاسلام ص ٣١٥ .

(٢) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٢ .

ولكن حركة الاستشراق في التاريخ المعاصر اصطدمت بالفروق القائمة بين المدنية والمادية الأوروبية ، والروحانية الشرقية . ويدافع ( ولفرد كانتويل سميث ) (١) عن المدنية الأوروبية ، ويصفها بأنها عالمية ، فيقول : إن الفروق الجامدة بين المدنيات لا وجود لها اليوم ، فالحضارة الحديثة رغم أنها نشأت في أول الأمر في الغرب والشرق . فالمدنية ، اذن ، ولو أنها مستحدثة بوجه عام ، إلا أنها لن تصبح غربية ، بل عالمية تسرى في كل الحضارات الأخرى .

وحيثما تطورت حركة الاستشراق في العصر الحديث ، وبدأت تأخذ الطريق العلمي بدأ الصدام بين فلسفة الشرق ، وفلسفة الغرب ، وكان لا بد لنجاح جهود المستشرقين من تقارب هماين الفلسفتين ، بحيث تكون هناك فلسفة لا هي شرقية بحثة ، ولا هي غربية خالصة . وفي ذلك يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين (٢) : يجب أن يكون للعالم فلسفة واحدة تسيره لا فلسفتان والذى يقود العالم الآن الفلسفة الأوروبية فى عقائدها ونظرياتها ونظام حياتها ، وهى فلسفة ناقصة تعتمد على المادة والقوة . وفلسفة الشرق ناقصة ، تعتمد على الروح ولا عقل لها ، واعتمادها على الروح البحث جعلها عرضة للخرافات والأوهام وان كان الإنسان جسماً وروحاً . وجوب أن تجاوب فلسفته هذين العنصرين .

ويرسم المرحوم الأستاذ أحمد أمين أيضاً الصورة التي يجب أن تكون عليها المدرسة العلمية الجديدة ، ومنهجها ، فيقول : ولا ينقص المسلمين فى الوقت الحاضر الا شيء واحد ، وهو مدرسة جديدة ذات منهج جديد ، مدرسة لا شرقية ولا غربية ، فان المدرسة

(١) الاسلام في التاريخ الحديث ص ١٠٢

(٢) يوم الاسلام ص ٢١٨ - ٢١٩

الشرقية ، أعني مدرسة العصور الوسطى لم تعد صالحة للعصر الحاضر لأنها تعافت بمرور الزمان . والمدرسة الغربية معيية في بلدانها ، فكيف إذا قللت في غير بلادها ؟ إننا نريد مدرسة تضع منهج العلوم كمنهج البلاد الأوروبية ، مع خلاف بسيط وهو أن يطعم منهج العلوم بالنية الحسنة ، نية خير الإنسانية لا تدميرها . بل نحن متسمحون إذا وصفنا العلم بأنه أوروبى ، لأن العلم لا وطن له ، ولا يقتصر على خدمة دين دون دين . أما في الأدب والتاريخ ، فمنهج مدرستنا غير منهج مدرستهم . إنهم سمونا بأشياء كثيرة ، سموونا بقولهم أن الفن للفن ، وبقولهم : إن الأديب حر يقول ما يشاء ، وسمونا بمنهجهم التاريخي الذي يقضي بأن مركز العالم الرجل الأبيض ، ومن عدائه فعل هامشه ، إلى غير ذلك (١) .

ورغم تطور حركة الاستشراق ، ونبذها الجوانب التعصبية التي كانت من طابع العصور الوسطى ، فقد استمر الاستشراق يهتم بالدراسات الإسلامية أكثر من اهتمامه بالدراسات العربية . ويبعد المستشرق ( بارت ) (٢) هذا الاتجاه فيقول : يرتبط الإسلام بالعروبة بعلاقة تبادل فريدة فقد كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بواطن وواحات شبه الجزيرة التي سميت نسبة إليهم يعيشون فسادا ، حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بالله واحد خلق باري وجمعهم في كيان واحد متجانس ، وانطلقت آيات وسور القرآن لأول مرة في مكة ، وهي أقدم أعمال الثقافة الإسلامية العربية المدونة . ولكن العالم الواسع المترافق ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالإسلام إلى عامل من عوامل القوة السياسية . لهذا كانت ظاهرة الإسلام ظاهرة تلقى أسبقية وأفضلية

(١) يوم الإسلام ص ٢١٩ .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية ص ٤٠ .

في ميدان البحوث الاستشرافية أو على الأدق في ميدان البحوث العربية الإسلامية .

وأدت جهود المستشرقين ، واهتمامهم بالمنهج العلمي ، وتطوير الدراسات الإسلامية والعربية ، إلى ظهور مفاهيم جديدة لأنماط (الثقافة) و (المدنية) و (الحضارة) . وأصبحت (الثقافة) تقابل ما يسميه الغربيون Culture في بين المفظين شبهه في أصل المعنى ، إذ كلتاها تعنى التهذيب والتربية والتنمية ، ومن هنا أصبح المدلول العام لكل من هاتين الكلمتين - العربية والأفريقية - الجانب الروحي المعنوي من حياة الفرد أو الجماعة .

أما كلمة (مدنية) فمن السهل أن نصطلح على أن تعنى بها جانب العلم والمادة والاختراع من حياة الأمم . فالمدنية الغربية مثلاً يقصد بها ذلك الرقي العلمي والمادي الذي حققته أوروبا وأمريكا في العصر الحديث والذي قام على أساس الطريقة والنظريات العلمية وما أدى إليه من اختراع ، ومن تسيير لقوى الطبيعة ، وتحكم في عناصرها ، وما كان لذلك من أثر في المعيشة وأساليبها ، وفي السلم وال الحرب ، والصناعة والزراعة وما إليها .

ولكن هناك من يستعمل كلمة (حضارة) مرادفة لاستعمال كلمة (مدنية) وهما تقابلان الكلمة الغربية Civilization

ومن يستعمل كلمة (حضارة) بالمعنى الواسع الذي يشمل (الثقافة والمدنية) أي يشمل ظواهر الحياة الروحية والحياة المادية على السواء . فلذا تحدثنا عن حضارة الإسلام قصدنا ما وضعيه الإسلام من أساس لمعقidiة والأخلاق ونظم الحياة الفردية والجماعية ، وما أنتجته البيئات الإسلامية من أدب وفن وفلسفة ، وما وصل

اليه علماء تملک البيئات من نظريات . وما أبدعوه من مختبرات (١) . اهتم المستشرقون بتاريخنا الحضارى ، وهم يعتبرونه ركناً أصيلاً في دراسة أدبنا ولغتنا وعلومنا ، ويرجع إليهم الفضل في ابراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الإسلامية . فقد أبرزوا أثر الإسلام في حضارات الأمم الأخرى ، وكيف تأثرت بها حضارته ، كما أوضحوا أثر الحضارات الإسلامية في حضارة أوروبا وأوضح المستشرقون أن الإسلام لم يكن مجرد ثقافة روحية ، ولم تتحصر حضارته في الأدب والفن والفلسفة والتصوف ، ولم تكن الحضارة الإسلامية تراث جنس واحد أو أمة خاصة من الأمم ، فقد أنشأ الإسلام حضارة واسعة غنية ، فيها الروح والمادة ، وفيها المعرفة والعمل ، وفيها الأدب والعلم ، وقد اتسع صدرها لكل نافع من ذخائر الحضارات القديمة ، وطبعت تطور الإنسانية بطبعها عده قرون ، ثم تلقى الغرب منها مبادئ النهضة في العصور الوسطى ، وقد اعترف المستشرقون بذلك ، وأخرجوا عدداً من الأبحاث في هذا المجال .

وكان فهم المستشرقين للإسلام وطبيعته وروحه ، يحدد مدى تجاحهم في دراسة التاريخ الإسلامي والحضارة ، وكلما وضحت صور الإسلام في أذهانهم ، أصبحت أبحاثهم واقعية وحقيقة وذات قيمة علمية . كما أن فهم المستشرق للإسلام يبعده عن تأثره بحضارته الغربية المادية العصرية الدنيوية . وفي ذلك يقول المستشرق الأمريكي المعاصر ( ولفرد كانتويل سميث ) (٢) : يمر المجتمع الإسلامي اليوم ، شأن بقية الجنس البشري بمرحلة انتقال خطيرة ، والذى

(١) محمد خلف الله أحمد : الإسلام والحضارة ص ١٣ - ١٤ . ( طبعة وزارة الارشاد القومي ) .

(٢) الإسلام والتاريخ الحديث ص ٩ .

يتميز هذا المجتمع أن أعضاءه يواجهون الحياة العصرية ، بغير تها وفرضها ، بوصفهم ورثة تقليد فريد والسمات المميزة لهذا المجتمع هي : ايمان ، واسلام ، وماض عظيم . ان التطورات التي حدثت في العالم الاسلامي كثيرة وجوهرية لدرجة يجعلها تصعب على الفهم ، على أن هذا الفهم لا غنى عنه لغير المسلمين حتى يقيموا صلاتهم بالعالم الاسلامي على دعائم من الفهم والادراك كما أن فهم الأحداث الجارية في العالم الاسلامي إنما يتضمن فهما لصفتها الإنسانية . فان عقيدة المسلم ، صفة وشكلها ، لتأثر في تطور مجتمعه سياسيا واقتصاديا وحضاريا . اننا في حاجة الى فهم شامل وواضح لماهية الاسلام ، وماهية الحياة العصرية ان أردنا فهم حالة العالم الاسلامي ، فان الاسلام قوة ، وكان في حركة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

منذ أوائل النهضة الاوروبية احتلت دراسة الفلسفه المسلمين مكانها في الجامعات القديمة مثل باريس ولوغان ، وظهر أثر الفكر الاسلامي في بعض الفلسفه الغربيين ، مثل ( ديكارت ) وترجمت بعض روائع الآداب الشرقيه مثل « ألف ليلة وليلة » الذي ترجم الى الفرنسية في نهاية القرن السابع عشر ، ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات . واتجهت العناية الى دراسة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبدأت تظهر الكتب الاوروبية عن الاسلام وتاريخه ، والترجمات المختلفة للقرآن ، وأسست الجمعية الآسيوية في انجلترا وفي فرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأخذ العلماء الاوروبيون ينقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشروها .

والحق أن كثيرا من كتب المراجع التي نعتمد عليها اليوم في دراساتنا العربية والشرقية إنما يرجع الفضل في ظهورها وتنصير الانتفاع منها إلى أولئك العلماء من الانجليز والفرنسيين والألمان واليطاليين وغيرهم .

وفي الأعوام ١٨٣٣ و ١٨٤٣ ظهرت مؤلفات فتحت العصر الحديث في البحث التاريخي النبوي لحياة محمد وتاريخ ظهور الإسلام . من هذه المؤلفات ( النبي محمد ، حياته وتعاليمه ) و ( مدخل تاريخي نبوي إلى القرآن ) من تأليف ( جوستاف فايل ١٨٠٨ - ١٨٨٩ ) ، وهذا الكاتب من أصل يهودي . نال تربية تلمودية ، ثم درس بالجامعات الألمانية وعرف المنهج التاريخي . ويتميز كتابا ( جوستاف فايل ) بأنهما من ناحية الموضوع أكثر شمولا . وكتاب السيرة خاصة يستحق أن يعتبر فاتحة عصر جديد . وإذا كان الكتابان لا يجداناليوم فراء يحفلون بهما ، فمرد ذلك إلى أن البحث في حياة محمد ( عليه الصلاة والسلام ) قد تقدم في هذه الأثناء ، وظهرت نتائجه في منشورات حديثة قريبة المنال . وقد استعمل ( فايل ) في سيرته كل المصادر التي أمكنه الوصول إليها بكل الطرق ، ورحل خاصة إلى مدينة ( جوتا ) ليبحث في المكتبة الأميرية بها عن مخطوطات تختص بموضوعه . أما كتابه ( مدخل إلى القرآن ) فقد قسم فيه السور المكية لأول مرة إلى ثلاث مجموعات ، تقسمها أخذ عنه ( نولدكه ) فيما بعد . وقد أتبع ( فايل ) كتابه ( محمد النبي ) بعد ذلك بكتاب في ثلاثة مجلدات هو ( تاريخ الخلفاء ) أكمله بكتاب ( تاريخ الخلافة العباسية في مصر ) . وفي هذه المصنفات كذلك استخدم المصادر الأولى بعد تمهيض مادتها وتقديرها قدرها على نحو استقلالي ( ١ ) .

هذه هي بداية اهتمام المستشرقين الألمان بتاريخ الرسول والتاريخ الإسلامي على أساس منهجي علمي . أما المستشرقون الغرنسيون ، فقد اهتموا أيضا بالدين الإسلامي والدراسات التاريخية ، فكتب ( بودي ) حياة محمد ( سنة ١٦٧١ ) وهو الكتاب

( ١ ) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ٢١ - ٢٢ .

الأول الذى وقف به الفرنسيون على الاسلام . وتناول المستشرقون الفرنسيون ترجمة ( ماراتشى ) الراهب الايطالى ( بادوى ١٦٩٨ ) بالنقد والتعليق ، ونقلوا ترجمة الانجليزى ( بريدو ) الى الفرنسية ( ١٦٩٩ ) . وفي سنة ١٧٣٠ طبع الكونت ( دى بو لتفلييه ) تاريخ العرب وحياة محمد ، فأظهره بمظهر النابغة ورسول خير الى الجزيرة العربية . وفي سنة ١٧٨٨ كتب ( دى باستوريت ) كتاباً التوفيق بين ديانات الشرق الثلاث زرادشت وكونفيشيوس ومحمد ، فأصاب الاسلام حظ موفوز ، وأطرب ( لامارتن ) النبي العربي فى كتابه ( تاريخ تركيا ) ، وخصه ( ريمون ليروج ) بسيرة رائعة . ثم ازدادت عنانة الفرنسيين بالشرق الأدنى وشمال افريقيا (١) .

كما ساهم المستشرقون الايطاليون فى الدراسات العربية والاسلامية فى القرن التاسع عشر ، فقد كانت ايطاليا فى مقدمة دول الغرب التى اتصلت بالشرق نوعاً ، ونالت الثقافة العربية واللغات الشرقية من الترجمة والحفظ والتعليم والنشر ، بفضل الفاتيكان ، حظاً موفوراً موصولاً . وفي القرن ١٩ نظمت ايطاليا دراسة اللغات الشرقية وعهدت بها الى اعلام المستشرقين من أمثال : أمارى ، وسياباريللى ، وبوناتزيا ، واغناتيوس جويدى ، والأسقف بوجاردينى ، ونيلينو وغيرهم (٢) .

وكان الاستشراق الانجليزى بين أول وأوثق وأوسع ما عرفته أوروبا من استشراق منذ اتصال بريطانيا بالشرقين الأوسط والأقصى اتصالاً ثقافياً وعسكرياً واقتصادياً واستعمارياً . وفي خلال ذلك اتخد طابعه العلمى الخالص عندما توفرت للمستشرقين أسبابه ، وتنوعت أغراضه ، وانقطعوا اليه ، وأخلصوا فيه .

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ١ من ١٧١ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨ .

وفي مطلع القرن الثامن عشر ، ازدهر الاستشراق متاثراً<sup>1</sup> بعوامل عديدة من أشهرها : انشاء كرسين جديدين للغربية في جامعتي أكسفورد وكمبريدج ، واستمراع التوسع الأوروبي في الشرق الأقصى ، ولا سيما الهند ، اهتمام العلماء . ثم اختتام القرن الثامن عشر بحملة نابليون على مصر ، ومن صحبهما من العلماء ومعظمهم مستشرقون ، فاتصل الشرق الأدنى بأوروبا في الثقافة والسياسة والاقتصاد اتصالاً وثيقاً ، وتبين منه أن العربية أصل كل ثقافة إسلامية في أية لغة من اللغات .

وفي القرن التاسع عشر ، استمر ذلك الازدهار ، على تطور كبير في الدراسات العربية ، بفضل ما نشره علماء حملة نابليون ، وتخريج مدرسة (دي ساسي) الفرنسية جيلاً كاملاً من المستشرقين الأوروبيين ، وانشاء كرسى للغربية في جامعة ليندن ، وتأسيس الجمعيات الأسيوية وأصدار مجلاتها ، واتاحة الفرصة لمعظم المستشرقين في زيارة الشرق الأوسط فتوافدوا عليه من مختلف الجامعات الأوروبية ، وتبعهم عدد كبير من الرواد والروحالة والعلماء في حين لم تكن هذه الفرصة ميسرة لغالبية قدمائهم . ولما عاد الانجليز الى إنجلترا تعاونوا على التدريس والترجمة والتحقيق والتصنيف ، فتوفر لجامعة كمبريدج ثلاثة من مشاهير المستشرقين هم : بيفان ، ونيكولسون ، وبراؤن .

وقد تناولت دراسات المستشرقين موضوعات شتى من اللغات والأداب والعلوم والفنون والعقائد والتاريخ والجغرافية . هذا عدا الذين نشطوا للتنقيب عن الآثار وحل رموزها ووصف رحلاتهم ، فجلوا كثيراً من بلاد العرب وترانها للعالم (١) .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ابتدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين ، يعرضون فيها ما وصلوا إليه في البحوث الكلاسيكية الإسلامية والعربية والشرقية ، ويعقد بعضهم أوآخر الصلات مع بعض ، ومع البارزين من العلماء الشرقيين .

وكان مصر ، ولا يزال ، جولات موفقة في تلك المؤتمرات . في المؤتمر الذي انعقد في جنيف سنة ١٨٩٤ قدم شوقي ملحمته الخالدة :

هممت الفلك واحتواها الماء      وحداها يمن تقل الرجاء

وفي هذه المؤتمرات برزت جهود العلماء المصريين والشرقين في مختلف فروع الاستشراق ، وأصبحت لهم مكانة في أوساط المستشرقين وفيما تقوم به من مشروعات علمية .

أما المرحلة العلمية التي وصل إليها الاستشراق الآن ، فهي مرحلة العناية بالاسلام في أوضاعه واتجاهاته الحديثة . فلم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هي الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين ، وللختلاف الجماعيات والمعاهد وأقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الأمريكية والأوروبية ، بل انتقلت العناية إلى دراسة الأمم الإسلامية في نهضاتها الحديثة ، وإلى ما ينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية ، وإلى مقدار تأثير التعاليم الإسلامية الأصيلة في تفكير الشعوب الإسلامية المعاصرة ، وماذا بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق أو الاختلاف في النزعات وألوان التفكير ، وما مدى كل واحدة في التوفيق بين تعاليم الدين ومتطلبات الحياة العصرية المعقدة ، وعلى الأخص في التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب

الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها هذه الشعوب في التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفكر العلمي الحديث (١) .

ومن أشهر المستشرقين الذين يمثلون هذه الاتجاهات الحديثة المستشرق الأمريكي المعاصر ( ولفرد كانتوويل سميث ) الذي كان مديرًا لمعهد الدراسات الإسلامية وأستاذًا للدين المقارن بجامعة ماكجييل بمونتريال بكندا . وقد أقام في لاهور بضعة سنوات يدرس الإسلام وتاريخه ، وطاف ببعض أقطار الشرق الأوسط ومعظم أرجاء العالم الإسلامي ، ونشر عدة مقالات عن الإسلام في العصر الحاضر وتطوره والدور الذي يضطلع به الإسلام والمسلمون في عالم اليوم . وقد وضع ( سميث ) عدداً من الكتب أشهرها ( الإسلام الحديث في الهند ) و ( تحليل اجتماعي ) و ( الإسلام في العالم الحديث ) و ( الإسلام في التاريخ الحديث ) وقد قامت جامعة برنسون بنشرها . وقد زار ( سميث ) مصر سنة ١٩٥٨ وألقى محاضرتين في القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة (٢) .

تحدث المستشرق الألماني ( بارت ) عن آماله بالنسبة لحركة الاستشراق عامة ، وفي ألمانيا خاصة ، فقال : وهناك آمال تختليج في أنفسنا في أمر توسيع وتطوير الاستشراق الألماني ، فنحن ، على قدر ما أتبين ، مفتقرون في الوقت الحاضر إلى عالم متخصص في عملية الاصلاح والتجديف التي تتناول الشريعة الإسلامية ، وخاصة ما يصل منها بالأحوال الشخصية . وإذا كان لدينا الآن تمثيل قوى حالياً للبحوث الخاصة باللهجات في الدراسات العربية ، فإن

---

(١) محمد خلف الله أحمد ، الإسلام والحضارة ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) انظر مقدمة كتاب ( الإسلام في التاريخ الحديث ) لسميث ص ٣ - ٤ .

عدد الابحاث التي تتناول تاريخ الأدب ما يزال قليلاً نسبياً ،  
وما يزال البحث في الأدب العربي الحديث في بدايته لم يتجاوزها  
القليل . وهنالك طائفة كبيرة من الموضوعات والمشكلات الهامة  
تتطلب المزيد من الجهد ، ولدينا جيل جديد مؤهل نابه مستعد  
للعمل ، والدلائل كلها توحى بأن فروع علوم العربية والعلوم  
الإسلامية مستمرة في الازدهار والنمو بالجامعات الألمانية في  
المستقبل أيضاً .

رَفِعُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَخْرَيِّ  
أُسْلَمَ اللَّهُ الْفَزُورُ كَسَّ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

## تصنيف المستشرقين

حركة الاستشراق حركة واسعة النطاق ، متشعبة الفروع ، تختلف في بدايتها وفي المراحل التي قطعتها ، وفي اتجاهاتها ودرافعها ، وفي النتائج التي وصلت إليها . وقد ساهم في حركة الاستشراق آلاف من المستشرقين ، عبر العصور التاريخية المختلفة ، وكانت جهودهم متفاوتة ، مختلفة في صورها وبواطنها .

وليس المستشرقون جميعا صنفوا واحدا ، فهناك من قدم انتاجا علميا ضخما أفاد به البشرية عامة والشرق خاصة ، ومنهم من كان انتاجه وجهده متواضعا ، ومنهم من عاش على هامش الاستشراق . ومهمما كانت جهود المستشرق ، فقد ساهم بها في وضع لبنة أو لبيات في بناء الاستشراق ، ولكن يهمنا في تقييم هذه الجهود ما اتصفت به من انصاف أو اجحاف ، فقد أنصف كثير من المستشرقين الاسلام والرسول والتاريخ الاسلامي والحضارة العربية ، ولكن بعض

المستشرقين دفعهم تعصيهم أو حقدهم أو جهلهم أو تقصيرهم إلى  
الإساءة والاجحاف والتجحيد .

ولذا يمكننا تصنيف المستشرقين من حيث الانصاف والاجحاف  
إلى ثلاث فئات متميزة . فهناك فئة قدمت للعالم أبحاثا قيمة عميقه ،  
وفي نفس الوقت كانت عادلة في حكمها ، متزنة في دراستها ،  
منصفة في نظرتها ، فأشارت بالاسلام وبالرسول وبحضارتنا العربية  
الاسلامية . وهنالك فئة ثانية تعمدت الإساءة حينما أمسكت بالقلم  
لدراسة تاريخنا وحضارتنا ، وإن كانت في نفس الوقت قد توصلت  
إلى أبحاث ذات قيمة علمية . أما الفئة الثالثة ، فقد وقعت في  
المحظور ، ولم تنصف الاسلام وتاريخه وحضارته ، ولكن بدون عمد  
أو قصد ، أما لجهل بالعقيدة ونظمها ، أو قصور في البحث ، أو  
لعدم التمكن من اللغة العربية ، ولذا فحكمنا على هذه الفئة الثالثة  
يختلف عن حكمنا على الفئة الثانية التي أساءت عن عمد وتربيص  
وأصرار . ولنفصل الحديث الآن عن هذه الفئات الثلاث .

### أولاً : المستشرقون المنصفون :

لا شك أن هنالك فئة من المستشرقين الغربيين اتخذوا  
الاستشراق علماً قائماً بذاته ، ووهبوا له حياتهم ، وضحوا من أجله  
بالكثير من جهدهم ووقتهم ومالهم . بل ربما عاد عليهم الاستشراق  
بالأضرار أحياناً . فميخائيل سكوت نالته ريبة من ترجمته ابن  
رشد ، وروجر بيكون ألقى به في السجن لاعتماده على الفلسفة  
الشرقية ، وبولستن ، وكان أعلم مستشرق في عصره يجله الملوك  
والأمراء ، اعتقل في سبيل الاستشراق . وسيمون أوكل انقطع  
لتدریس اللغة العربية في كمبريدج انقطاعاً عاد عليه وعلى أسرته  
بالافلاس والسجن ، حيث أتم الجزء الثاني من كتابه تاريخ المسلمين .  
ولى سترانج كف بصره فيه ولم ينقطع عنه . والأمير كايتانى أنفق

ثروته على الاستشراق - عشرة آلاف جنيه ذهبا في السنة - وأفلس من بعده . وفريندل لقى مصرعه في التقليب عن الآثار فيما بين النهرين ، ورتسن ذهب ضحية الاستشراق بعد أن كشف عن آثار اليمن . كما لقى ( بالمر ) مصرعه خلال عودته من سيناء ، وقد قام بنشر ديوان البهاء زهيرتنا ، وترجم شعره إلى الانجليزية (١) .

ولا يعيش المستشرون الأوروبيون في الفراغ ، شأنهم في ذلك شأن ممثلي الفروع الأخرى من الدراسات غير الشرقية ، بل يضعون أنفسهم في خدمة المجتمع الذي ينتهي إليه ، والذي يمولهم ويشجعهم . ويتبين هذا في أن تخصص الاستشراق له في كل جامعة أوروبية على الأقل كرسى يمثله ، ومجموعة من وظائف المعيدين تتبع المجال لتنشئة جيل المستقبل من المستشرين . وهناك عنون آخر جوهري يتلقاه الاستشراق ويتمثل في المكتبات المتخصصة الالزمة لكل عمل علمي . فكل قسم للدراسات الشرقية أو معهد للدراسات الشرقية بأى جامعة من الجامعات الأوروبية يمتلك مكتبة كبيرة أو صغيرة خاصة بالقسم أو المعهد تكتمل وتنسخ على الدوام . علاوة على الأقسام الخاصة بالاستشراق في مكتبات الجامعات نفسها (٢) .

وكتير من المستشرين يهونون الاستشراق ثم يتخدونه مهنة كائين المهن الحرة ، في معاهده ومتاحفه ومطابعه ودور نشره ومجلاته ، إلا ذوى اليسار منهم ، أو الذين ضاقت مؤسسياته عنهم فطلبوا الرزق من سبل غيرها ، دون أن ينصرف أحدهم عن التحقيق والترجمة والتصنيف فيتراثنا العربي والاسلامي الذي

(١) نجيب العقيقي : المستشرون ج ٣ ص ١١٤٩ .

(٢) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ١٠٣ .

آسمى من تاریخ العلوم والآداب والفنون ، لا مطبع لدولهم فيه أو اقبال لمواطنيهم عليه أو مسيرة لعصره له ، فلا ثراء للمهنة ولا أمل لصاحبيها في ثراء .

أشاد الأستاذ نجيب العقيقي في كتابه القيم عن المستشرقين ، بجهودهم في سبيل الاستشراق ، فقال : لقد شاهدنا وسائل المستشرقين من اقامة معاهد ومكتبات ومتاحف ومطابع ودور نشر ومؤتمرات وبعثات ، وما خصت به كلها من هبات الأفراد ومساعدات المؤسسات وميزانيات الحكومات . ولو ترك المستشرقون المهام التي يقومون بها لنا ، نحن الشرقيين ، لاستنفدت منا ثروات طائلة .

ثم يقارن الأستاذ العقيقي (١) بين جهود المستشرقين ، وجهود الشرقيين العلمية ، فيقول : ولو وازنا بين عنانية المستشرقين بتراثنا وأكتشافه وصونه وتحقيقه وبين ما قمنا نحن به في سبيله لرأيناها تكاد تكون متساوية . ولو وازنا كذلك بين ترجمة أحد المستشرقين وآثاره وبين ترجمة أحد أعلامنا وآثاره لوجودناه يضافيه خلقا علميا وعدد كتب ، وأن لا غنى لنا عن معظمها في علومنا وآدابنا وفنوننا ، ولا سبيل إلى جهد فضيلها في فتح عيون الشرقيين والغربيين على ما في تراثنا من ثراء ، ثم على نهضتنا الحديثة التي كانوا من دعائهما . ولو سعينا إلى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه ونشره بشتى اللغات ، منذ ألف عام ، وفي كل مكان لاحتاجنا إلى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجهم ومعارفهم ودقتهم وجلدهم طوال حياتهم وفي ذلك من العسير علينا ما فيه ومن النواقص عليه ما يستنفد طائل الثروات .

---

(١) المستشرقون ج ٣ ص ١١٥ .

وفي الحقيقة لا يمكننا ، نحن الشرقيين ، أن ننكر فضل هؤلاء المستشرقين على الدراسات التاريخية المتصلة بالعرب والاسلام . فلن يفعل ذلك الا غير منصف أو متغافل عن الحق ، فان جهودهم في هذا السبيل لا يبلغها انكار . وقد يكون لبعضهم مارب تجاهي نزاهة العلم في الكتابة ، أو تهدف الى أغراض بعيدة عن روح العلم والحق ، ولكن أكثرهم قد بذل من الجهد في البحث ما لا يسع منصفا انكاره (١) .

في القرن التاسع عشر ، ظهر عدد كبير من المستشرقين في مختلف الأقطار الأوروبية ، امتاز بعضهم بدقة البحث واتقان الطريقة العلمية وتطبيقها على الدراسات العربية ، وبشمول النظر واتساعه والتطرق الى جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ، وقد قاموا بنشر عدد كبير من كتب التاريخ العربية ، وكتابات أخرى تتناول جوانب كثيرة من الحضارة العربية ، نشروا علمياً دقيقاً كما اهتموا بجمع المواد الأولية ، والوثائق الأصلية لدراسة التاريخ ، من نقود وأوراق بردى ، فضلاً عن الحفريات التي قاموا بها في عدد كبير من مراكز الحضارة الاسلامية ، يضاف الى ذلك أن المستشرقين بحكم نشوئهم في أوروبا حيث تقدمت دراسة التاريخ بأساليبها وآفاقها كانت لهم نظرة أوسع ، فاهتموا بجوانب متعددة من التاريخ الاسلامي ، وأظهر بعضهم عمقاً في التحليل واصابة في التعميل ، ونضجاً في الأحكام (٢) .

(١) محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٦ .

(٢) من مقدمة كتاب علم التاريخ عند المسلمين للمستشرق ( فرانزا روزنثال ) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ص ٦ ( طبعة فرانكلين سنة ١٩٦٣ ) .

وهناك فئة من المستشرقين المنصفين أقبلت على اعتناق الاسلام عن افتئاع ورضى أمثال : بو كهارت ، وكرنوكوف ، وزونستين ، وشنيستر ، وجرمانوس ، وكثير من البولونيين . كما اعتنق أحد عشر ألمانيا الاسلام في برلين وتسماوا باسماء اسلامية . كما اسلم بعض المستشرقين على يد شيخ الجامع الازهر مثل الدكتورة دارزولايان الالمانية التي تسمت باسم ( سامية الازهرية ) ومثل الأمريكية ( خديجة دلتك ) والأمريكى ( ليورس ) الذى تسمى باسم الشیخ محمد الازھری ، ومثل السويسريان : جميلة زوسترنج ، وألبرت كادلر ، ومثل المستشرق البريطانى ( جونس ) والصحفى البريطانى ( لويس هارد ) الذى أطلق على نفسه اسم ( زمسيس محمد يوسف ) ، وغيرهم (١) .

يدافع المستشرق ( ستوري ) عن المستشرقين ، ويرى عدم انتهاءهم جمیعا ، بدون استثناء بالتعصب والاجحاف ، فيقول « انكم في البلاد العربية تعتقدون أن جميع المستشرقين متتعصبو على الاسلام ، وما أرى هذا الاعتقاد صحيحا دون قيد . نعم ، ان هناك فريقا تعصب بحكم صنعته التي يرثى منها ، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم ، وليس من الاصف أن يشمل الحكم جميع الباقيين . ان الذين خدموا العربية كثيرون ، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين في أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا » (٢) .

تحدث المستشرق الالماني المعاصر ( بارت ) (٣) عن واجب

(١) العقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٦٢ .

(٢) الدكتور اسحق موسى الحسيني . علماء المشرقين في انجلترا ص ١٤ ( القدس ١٩٤٠ ) .

(٣) الدراسات العربية والالمانية ص ١٠٧ .

المستشرق في الوقت الحاضر ، فقال : لاشك أن البحث العلمي العميق وحده هو الذي يأخذ بيدنا الى الأمام ، ولا شك أننا لا نستطيع أن نجعله مقبولا من كل انسان سائغا لكل فم . هذا الى أن المستشرق العالم مضطر اليوم أكثر من أى وقت مضى الى الكلف باللغات ، أعني الى الاهتمام بمراكز تقلل معينة والى قبول الاكتفاء من الميادين الأخرى بما يكتفى به غير المتخصص فيها من علم . ولكن لا بد أن تكون مراكز التقلل التي يوجه اليها اهتمامه مراكز تقلل حقا وصدق ، ولا ينبغي أن تكون مجرد غرائب وعجائب ، والفيصل في الأمر هو تقدير ما اذا كانت المعلومات والأراء التي يرجو الحصول عليها نتيجة لبحثه تبشر في غير كثير من الكتب وفي وقت معلوم معقول بشمرة تفييد جماعة أوسع من اخوانه البشر . وقد يؤتى المتخصص في العلوم الاسلامية والערבية فرصة تعريف جمهور كبير بميدان نشاطه العلمي مباشرة بمحاضرة عامة يلقىها عليه ، أو كتيب مبسط يصنفه له ، فعليه أن ينتهز ما استطاع الى ذلك سبيلأ وألا يتثبت بوجهة نظر ( الفن للفن ) التي تقادم عهدها .

ومن المستشرقين من قدموا الى الشرق وعاشوا فيه سنوات طويلة ، وأبدوا اعجابهم بحضارة الشرق وأهله . ونذكر من هذه الفتة المستشرق الانجليزى ( أدولارد ولیس لین ) . وقد ولد في انجلترا سنة ١٨٠١ ، وقدم الى مصر ثلاث مرات ، كانت المرة الأولى سنة ١٨٢٥ ومكث في مصر فترة عاد بعدها الى انجلترا . وما لبث أن دفعه الحنين الى القدوم مرة ثانية سنة ١٨٣٣ حيث مكث بمصر عامين الى سنة ١٨٣٥ ، ثم عاد الى وطنه . ويبدو أن من يشرب من ماء النيل ما يلبث أن يعود اليه . فقد قدم ( لین )

الى مصر سنة ١٨٤٢ حيث أقام سبع سنوات الى سنة ١٨٤٩ عاد  
بعدها الى انجلترا حيث مات سنة ١٨٧٦ .

وخلال اقامته (لين) في مصر ، لم يعش في برج عاجي ، بل  
عاش في وسط الاحياء الشعبية المصرية ، وصادق كثيرا من  
المصريين ، وخبر عن قرب الألائق والعادات المصرية ، وأخذ يبحث  
عن أصولها الشرقية والערבية في الكتب العربية القديمة ، وألف  
عدة كتب حول خلاصة مشاهداته ودراساته .

من مؤلفات (لين) كتابه (المصريون المحدثون) (١) وقد  
تحدث فيه عن عادات وأخلاق المصريين . ووضع (لين) معجما  
عربياً انجليزياً ، كما ترجم كتاب ألف ليلة وليلة الى الانجليزية .  
ومن أبرز مؤلفات (لين) هو كتابه (المجتمع العربي في العصور  
الوسطى) (٢) الذي صور فيه جوانب كثيرة من حياة العرب  
الاجتماعية في العصور الوسطى ، مع مقارنتها بحياة العرب في  
القرن الذي عاش فيه (لين) وهو القرن التاسع عشر ، وقد  
استعان (لين) بكثير من الكتب والمصادر العربية ، معظمها من  
المخطوطات ، كما استفاد من ترجمته لقصص ألف ليلة التي تصور  
حياة العرب في العصور الوسيطة ، وأصبح كتاب (المجتمع العربي  
في العصور الوسطى) يجمع بين الفائدة العلمية ومتاعة القراءة .

---

Modern Egyptians.

(١)

Arabian Society in the Middle Ages.

(٢)

وقد قمنا بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية عن الطبعة الصادرة في سنة ١٨٨٣ ، ونشرنا الترجمة في القاهرة سنة ١٩٦٠ (١) .

وقد ورث ( ستانلي لين بول ) ابن أخي ( ادوارد وليم لين ) عن عمه اقباله على الدراسات العربية والاسلامية ، فوضع كثيرا من المؤلفات التاريخية ذات القيمة العلمية الكبرى ، أبرزها ( تاريخ مصر في العصور الوسطى ) و ( صلاح الدين ) و ( قصة القاهرة ) و ( دراسات في مسجد ) وغير ذلك . وهو صاحب الفضل في نشر كتاب ( المجتمع العربي في العصور الوسطى ) في لندن سنة ١٨٨٣ .

ومن أبرز المستشرقين الذين أنصفووا الاسلام وحضارته وتاريخه ( جوستاف لوبيون ) ، وهو مستشرق فرنسي فطن إلى فضل العرب على حضارة أوروبا ، فآخر في سنة ١٨٨٤ كتاب ( حضارة العرب ) الذي قام بترجمته إلى اللغة العربية الأستاذ عادل زعيم . ومن كتبه أيضا ( الحضارة المصرية ) وقد ترجمه الأستاذ صادق رستم ، ومنها كتاب ( حضارة العرب في الاندلس ) وقد ترجمه الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي سنة ١٩٢٣ .

سلك المستشرق ( لوبيون ) في تأليف كتاب ( حضارة العرب ) طريقا لم يسبقه إليها أحد ، فجاء جاما لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها في العالم ، شاملًا لجوانبها ، باختصار في قيام دولة العرب وفي أسباب عظمتهم ، مبتعدًا عن أوهام المستشرقين الأوروبيين التقليدية في العرب والاسلام . وقد استعان لوبيون بطريقة التحليل العلمي ، فأوضح في هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضي ،

---

(١) انظر المقدمة التي كتبناها لكتاب ( المجتمع العربي في العصور الوسطى ) لادوارد وليم لين ص ٣ - ٤ ( سلسلة كتب ثقافية سنة ١٩٦٠ ) .

ووصف فيه أصل الجنس العربي والبيئة العربية ، ودرس فيه أخلاق العرب وعاداتهم وطبائعهم ونظمهم ومعتقداتهم وعلومهم وأدابهم وصناعاتهم وتأثيرهم في المشرق والمغرب (١) .

ومن أبرز المستشرقين الذين خدموا التاريخ الإسلامي ، المستشرق الألماني ( يوليوس فلهوزن ١٨٤٤ - ١٩١٨ ) الذي أخرج للمكتبة الإسلامية العديد من الكتب منها ( محمد في المدينة أو كتاب المغازى للواقدى في ترجمة ألمانية ملخصة ) ( ١٨٨٢ ) وكتاب « آثار من الجاهلية العربية » ، ثم كتاب « المدينة قبل الإسلام » ، وكتاب « تنظيم محمد للجماعة في المدينة » ، و « كتاب محمد والسفارات التي وجهت إليه » ، وكتاب « مقدمة للتاريخ الإسلامي الأقدم » ، وكتاب « أحزاب المعارضة الدينية السياسية في عصور الإسلام القديمة » ( سنة ١٩٠١ ) .

أما أعظم كتب ( فلهوزن ) فهو ولا شك كتاب « الدولة العربية وسقوطها » الذي نشره سنة ١٩٠٢ ، وقام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ونشره بالقاهرة . وقد تحدث المستشرق الألماني المعاصر ( بارت ) ( ٢ ) عن هذا الكتاب فقال : هو كتاب عظيم من الناحية العلمية ومن الناحية الفنية ، وعمل يعتمد على تحليل نقدى للمصادر المتمثلة في الفقرات المطلوبة من تاريخ الطبرى ، وعرض للتاريخ السياسي للإسلام حتى سقوط الأسرة الاموية يأخذ بمجامع قلوب القراء . ولو اقتصر ما وصلنا من

(١) انظر مقدمة الأستاذ عادل زعبيتر في ترجمته لكتاب ( حضارة العرب ) لجوستاف لوبيون ص ٦ ( الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٦ ) .

(٢) الدراسات العربية والاسلامية ص ٢٧ - ٢٨ .

انشائه على هذا الكتاب وحده ، لحق علينا أن نعتبره من أجله أهم مؤرخ كتب عن تاريخ الاسلام اطلاقا .

وكتب ( كارل هاينريش بيكر ) عن منهج فلهوزن فقال : كان فلهوزن لا يتوجه الى المادة بالتساؤلات ، ولكنـه كان يدع التساؤلات تفرض نفسها من روح المصدر نفسه . وكان يفوق كل من سبقوه في أنه يرى المصدر كلاما متكاملا ، ولذلك وقف حيال المدونات الفنية عظيما رفيعا . وكان في احساسه أنه ينبغي تجديد كل شيء من أساسه ، لا يجد ضرورة ملحة في الاحتياط بكل شيء علما وفي مناقشته وتمحيصه .

## ثانيا : المستشرقون المجرفون :

وهناك فئة أخرى من المستشرقين أساءت إلى الدين الإسلامي ، والى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والى الحضارة الإسلامية والعربية . ولكن اساءاتهم تتفاوت أيضا ، فهناك اساءات باللغة لا يمكن أن نغفلها أو نغفرها لهم . وهناك اساءات محدودة تدور في دائرة ضيقة ، وقد نغتفر لها اذا علمنا أن هؤلاء المستشرقين قد قدموا انتاجا قيما أفاد المكتبة الإسلامية والعربية . ولكن لا نبرئ هؤلاء ، وهم فقد كانت اساءاتهم عن عمد ، وعن سوء قصد ، عبروا بها عن نواياهم الخبيثة ، في اصرار وساقووا الأدلة المزيفة لاثبات اتهاماتهم .

وكان هؤلاء المستشرقين الذين اتصفوا بالاجحاف والجحود ، على جانب كبير من الدهاء والذكاء والمكر ، فقد بذلوا جهودا علمية كبيرة ، وتعقروا في الدراسات العربية والاسلامية ، وقدموا انتاجا علميا قيما ، حتى يغروا أهل الشرق على قراءته أو الاستفادة منه . ولم تكن كل كتاباتهم اساءات فهم أذكياء مهرة ، بل انهم

لم يسرفوا في اجحافهم ، فاقتصرت اساءاتهم على سطور قليلة منتشرة بين صفحات الكتاب العديدة ، فكان كمن يضع ( السم في العسل ) ، فأصبحت كتبهم كوبا من العسل الرائق اللون الحلو المذاق ، وفيه قطرات قليلة من السم كافية للقضاء على الحياة . وجاءت هذه السطور في ثنايا الكتاب ، لا يفطن إليها إلا متخصص متعمق ، أو قارئ فطن لبيب ، ولكن قد تفوت على القارئ العادي غير المتخصص ، وتدى إلى بلبلة العقول ، وتشويه الأفكار .

وهولاء المستشرقين أيضا لا يسوقون الاتهامات جزافا ، فهم يعمدون إلى تقليل صفحات المصادر العربية القديمة ليجدوا ثغرات ينفذون منها إلى أغراضهم المغرضة ، أو ليتوصلوا إلى سطور قليلة يستندون إليها في اساءاتهم واتهاماتهم ، وقد يجدون مثل هذه السطور في بعض المصادر الضعيفة أو القليلة الأهمية ، أو في بعض الروايات المشكوك في صحتها ، ثم يقول المستشرقون لنا ( لقد شهد شاهد من أهلكم ) . وقد يلجم المستشرق إلى التأويل ، فيحمل الروايات العربية القديمة ما لا تتحمله ، ويلبس الحق ثوب الباطل ، ويفسرها بما يتفق مع أغراضه وسوء نواياه . ويلجم المستشرق إلى أساليب ملتوية ليقنع القارئ العربي والمسلم برأيه ، وقد يظهر المستشرق في ثوب الحمل البريء وقد يسوق عبارات المديح ، وقد يسرف أيضا في سوقها ، ويدس بينها عبارات قليلة تسيء إلى الإسلام وتاريخه .

وفي مقدمة هؤلاء المستشرقين الذين نصفهم بالاغراض والاجحاف والجمود الأب لامانس ( ١٨٦٢ - ١٩٣٧ ) ، رغم أنه قدم إلى المكتبة الإسلامية كثيرا من الكتب ذات القيمة العلمية والجهد العميق . ولا منس بلجيكي المولد ، فرنسي الجنسية ، انضم إلى

الرهبانية سنة ١٨٧٨ وكان من أوائل خريجي جامعه القديس يوسف في بيروت حيث تعلم اللغة العربية ، ثم أصبح أستاذًا فيها . وكان كتاب ( فرائد اللغة في الفروق ) أول نتاج شهد له فيه العلماء بسعة الاطلاع ودقة الملاحظة وقوه الاجتهاد . ثم تنقل سرقا وغريبا ( ١٨٩١ - ١٨٩٧ ) فدرس اللاهوت في إنجلترا ، وتولى ادارة التبشير في بيروت ، وقام بالتدريس في لوفان وفيينا وروما ، حتى استقر في جامعة القديس يوسف في بيروت ، وعهد اليه بالدراسات الشرقية فعكف عليها ، حتى انه قرأ الأغانى سبع عشرة مرة والقلم بيده ، وصنف فيها مصنفات وفيه قيمة ، وقد توفي في بيروت . ويضيق المقام هنا عن تعداد آثاره العلمية ، فقد ذكرها الأستاذ نجيب العقيقى في كتابه ( المستشرقون ) في أكثر من ثلاث صفحات كاملة ( ١ ) .

هاجم المرحوم الأستاذ ترد على الأب ( لامانس ) في كثير من مواضع كتابه ( الاسلام والحضارة العربية ) ( ٢ ) ، فكان مما قال عنه : عاهد لامانس تاريخ الاسلام على مناقضته ، وتمحض لمحض من قدر العرب منذ عرروا بين الأمم . لقد نسى لامانس وبعض جماعة من اليهوديين المتحتم عليهم أمانة العلم ، فأخذوا منذ ألقوا رحالهم في الشرق ، يحرفون آيات القرآن ، ويحذفون من كتب المسلمين ما لا يروقهم ، يخلطون الآيات بأبيات من الشعر ، و يجعلون الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، حتى انهم لا يذكرون الرسول عليه الصلاة والسلام بما ينوه من شأنه بزعمهم ، وما تحرجوا قط من اقتطاع جملة واحدة من نص طويل، ليبيتوا عليه ما يتخيلوه

( ١ ) انظر مؤلفات لامانس في كتاب ( المستشرقون ) للأستاذ العقيقى ص ١٠٦٩ - ١٠٧١ .

( ٢ ) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠ - ٣٣ .

نافعا لغرضهم يوردون الخرافات المنقوله بصيغ التضليل في كتب  
الوضباعين والقصاصين ، ويدعون أنها منقوله من كتب الشقاق  
الأثبات .

ألف (لامانس) تاريخا مختصرا للشام لم يذكر فيه للإسلام ولا للعرب محددة ، مدة ثلاثة عشر قرنا ونيف ، و مما أورد فيه من الأفكار السخيفه ، أن العربي أثبت خلال الفتوحات أنه جبان ضعيف في الجندية ، لا يفكر في غير المغانم ، وأن العرب ظهروا كما كانوا على عهد الرسول وسطا في القتال ، وعلى استعداد للنهب ، يحجمون أمام الخطر ، وأنهم تركوا للسكان الأصليين محاكمهم ولسانهم وأنظمتهم البلدية عجزا منهم لا تسامحا ، وأن العرب لا قابلية لهم لشيء من أسباب الحضارة ، وأن الحروب الصليبية تمثل بسالة الأوروبيين ، وأن صلاح الدين أبقى على الصليبيين عجزا وخوفا منهم ، وأن عهده كان قليل البهاء ، ووصفه بالطبع . وادعى (لامانس) أيضا أن اليهود عمدوا في عهد الحروب الصليبية في الغرب معاملة حسنة ، إلى آخر تلك الأكاذيب !!!

وناقش الأستاذ محمد عبد الغنى حسن (1) منهج (لامانس) فقال : كان لامانس أعلم المستشرقين بتاريخ الدولة الأموية ، وكان واسع الاطلاع في هذا الموضوع ، ولكنه لم يسلم من تعصب صارخ يكاد ينادي على نفسه ، ولم يسلم من غهظات ونزاعات تظهر في كتاباته . أما طريقة في الاستنتاج والاستقراء والتقصي والتحليل والتنظيم فهي طريقة علمية يجب أن يتعلم منها المتصدرون منا لكتابه

(1) علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٦ .

التاريخ ، وان كانت استنتاجاته كثيرا ما تكون مبنية على حوادث فردية لا تصل الى مرتبة تأصيل الأحكام .

ومن المستشرقين الذين أساءوا الى الفكر العربي ( ديلاسي اوليري ) (١) وهو مستشرق أيرلندي الأصل كان يعمل أستاذا في جامعة ( برسټول ) ، ولغته العلمية هي الانجليزية ، ولكنه كان يحذق الى جانبها اللغتين الفرنسية والألمانية ، وعدها من اللغات الحديثة والقديمة في أوروبا والشرق ، كالاغريقية واللاتينية والعربية والسريانية والعبرية والفارسية .

ومن أشهر كتبه ( مختصر تاريخ الخلافة الفاطمية ) الذي نشر في لندن سنة ١٩٢٣ ، و ( الجزيرة العربية قبل محمد ) ونشر في لندن سنة ١٩٢٧ ، و ( الفكر العربي ومكانه في التاريخ ) ونشر في لندن سنة ١٩٢٢ ونقله الى العربية الدكتور تمام حسان ، وله أبحاث في مجلة تاريخ الهند منها ( أثر جالينوس في الفلسفة العربية ) سنة ١٩٢٢ ، ومنها ( مصادر الثقافة العربية ) سنة ١٩٢٥ .

ويعتبر الدكتور تمام حسان (٢) في مقدمة ترجمته لكتاب ( الفكر العربي ومكانه في التاريخ ) مؤلف الكتاب ( ديلاسي اوليري ) من بين غلاة المستشرقين الذين يتلمسون في ثقافة العرب ما يرجون أن يردوه لأدنى شبهة الى ثقافة الاغريق أو الرومان ، فالفقه الاسلامي في رأيه آخذ عن القانون الروماني ، لأن العرب

(١) انظر مؤلفات دى ساسى في كتاب ( المستشرقون ) للأستاذ العتيقى ج ٢ ص ٥٢٣ .

(٢) انظر مقدمة الكتاب ص ٩ ( طبعة وزارة الثقافة بالقاهرة ) .

وجدوا في الأقاليم الرومانية المفتوحة أوضاعا فقهية أقروها ، والفلسفة الإسلامية في نظره طور من أطوار الفلسفة الهلينية ، لأن العرب بحثوا المشاكل الفلسفية التي بحثها الفلسفة الهلينيون ، والتصوف الإسلامي ذو روافد من الأفلاطونية الحديثة ، لأنه اتفق معها في بعض الآراء ، بل إن العقيدة الإسلامية نفسها تشتمل على عناصر هلينية لأنها ارتكبت بعض ما ارتكبته المسيحية أو الفلسفة الهلينية .

ويensi ( ديلاسي أوليري ) أن فقه الإسلام مصدره الكتاب والسنة ، وأن فلسفة الإسلام وان بدأت في ظل مؤثرات هلينية قد اشتقت لنفسها طريقا إسلاميا خالصا ، وأنها ارتبطت بالبيئة الإسلامية برباط محكم ، وأن التصوف الإسلامي وان اشتتمل على أفكار شرقية وغربية وقد استمد وحيه من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم . نسي المؤلف ذلك ، أو لعله تنايساه ، ليجعل من شأن الأغريق الأوروبيين ، أبناء قارته وبني عمومته وأسلافه الفكريين ، وليحط من شأن العرب ، إنما لدعاف عنصرية ، أو دينية ، أو هما معا !!

ان الحق يقتضينا أن نفرق بين المستشرقين المبشرين ، والمستشرقين الباحثين . ولن تجد الجحود للإسلام والتحامل عليه الا بين الفريق الأول ، فمنهم تتوقع كل حق مقصود ، وكل نية خبيثة ، وقد كان أجمل الظن بهؤلاء أن تحميهم صفتهم الدينية من الوقع فيما لا يرضاه دين ، وما لا يقبله عقل سليم ، ولكن لعلهم من هذه الناحية صبوا على الإسلام وتاريخه وحضارته خضبهم ورموه بما هو منه براء .

والحق أننا لن نجرد المستشرق أو الباحث الأجنبي في الدراسات الإسلامية وما إليها من التأثر بمواريثه الدينية الخاصة ،

وبمزاجه الشخصى ، وبالظرف والملابسات التى تحيط به حين يكتب عن الاسلام أو نبى الاسلام أو قرآن المسلمين . ومن زعم غير ذلك فقد اجترأ على تجريد النفس البشرية من بعض خصائصها أو تكليفيها بما ليس فى طبعها .

على أن المبالغة فى التأثر بالمؤثرات الخاصة فى مجال البحث العلمى ، المفروض فيه أن يكون نزيفها منصفا ، هي ما يعاب على الباحثين الذين يخلطون بين أصول العلم ونزاهة البحث ، والذين لا يستطيعون - وهم أسرى للتأثير والانفعال والعاطفة - أن يفرقوا بين الحقيقة التى يجب أن تقال ، وبين النزوة التى يجب أن تكتب (١) .

حاول المستشرق الامريكي ( ولفرد كانتوويل سميث ) (٢) أن يعلل أخطاء المستشرقين الذين تناولوا التاريخ الاسلامي الحديث ، ولكنه لم يوفق ، حين قال : ان كل الكتب والأحاديث الاسلامية التى تتصل بالاسلام تتخذ موقف الدفاع وتهدف الى حماية دمار الاسلام أكثر مما ترمى الى بيانه والكشف عنه . وهذه الحقيقة ، فى تشعبها البعيد ، هي علة سوء التفاهم بين المسلمين والغربيين ، والسبب فى أن غير المسلمين يسيئون فهم الأفكار الاسلامية الحديثة ، والواقع أن كلا من الجانبين لم يدرك الموقف ادراكا كاما ، فالمسلمون يأخذون قضايا الدين بتسلیم ، ولا يتقبلون سواها . على حين نجد الغربيين يؤمنون بالتفصیر العقلي . وهذه الطريقة

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والتجزء ص ٨ ( القاهرة ١٩٦٠ ) .

(٢) الاسلام فى التاريخ الحديث ص ٣٣ - ٣٤ .

التي يتبعها المسلمون في تقبيل دينهم تفسد تقدير الغربيين للإسلام الحديث وتقف حائلاً أمام المسلم في صراعه ضد الصعوبات الدينية الحديثة التي يواجهها .

### ثالثاً : مستشرقون متحفون بدون قصد :

وهنالك فئة ثالثة من المستشرقين وقعوا في الخطأ والزلل ، وأساعوا إلى تاريخنا الإسلامي وحضارتنا العربية ، ولكن بدون قصد أو عمد . وإن كنا نحاسبهم على أخطائهم واساءاتهم ، إلا أن حكمنا عليهم - بدون شك - أخف وطأة من حكمتنا على تلك الفئة السابق الحديث عنها من المستشرقين الذين تعمدوا الإساءة والاجحاف ، وكانوا مغرضين في كل ماكتبوا . وإننا في حكمتنا هذا ، تكون كالقضاة الذين يفرقون في أحكامهم بين القتل الخطأ ، والقتل العمد مع الترخيص وسبق الاصرار .

ويشرح المستشرق الألماني ( بارت ) (١) منهج المستشرقين ، وأنهم يخضعون الدراسات الإسلامية للمعيار النقدي ، وأنهم يريدون الوصول إلى الحقيقة ، فيقول : نحن ، مستشرقون ، عندما نقوم اليوم بدراسات في الدراسات العربية والإسلامية لا نقوم بها فقط لكن نبرهن على صحة العالم العربي الإسلامي ، بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة . ونحن بطبيعة الحال ، لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيها النظر ، بل نقييم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد

---

(١) الدراسات العربية والالمانية ص ١٠ .

التاريخي . ونحن في هذا نطبق على الاسلام وتاريخه ، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها ، المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعلمنا نحن . واذا كانت امكانيات معرفتنا محدودة - وهل يمكن أن تكون الا كذلك ؟ - فاننا نؤكد بضمير مطمئن أننا في دراستنا لا نسعى الى نوایا جانبية غير صافية ، بل نسعى الى البحث عن الحقيقة الخالصة .

وهكذا اعترف المستشرق ( بارت ) بأن امكانيات معرفة المستشرقين محدودة ، مما قد يسبب وقوع بعض المستشرقين في مواطن الزلل . والمستشرق ( ستورى ) (1) يطلب من الشرقيين بأن يتسامحوا مع المستشرقين الذين وقعوا في الخطأ بدون قصد ، فيقول : ان الذين خدموا العربية كثيرون ، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين في أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا ، وان أخطأ باحث من غير قصد فليس السبيل الى تقويمه أن يجرح ويقذف ، ثم انا نبعث لغات بعيدة عنا ، ونخوض في موضوعات في غاية الدقة ، مستعينين بالاساليب الحديثة ، وكما أنه يشفع للطبيب الجراح - ان أخفق في عملية جراحية - حسن نيته ، كذلك يجب أن يشفع للباحث طيب طويته وحرصه على الوصول الى النتائج دون تعصب .

من عوامل خطأ المستشرقين ، بدون قصد ، عدم توصلهم الى أسرار اللغة العربية التي هي ليست لغة المستشرقين الأصلية ، فهم لم يستطيعوا أن ينفذوا الى كنهها نفوذ العرب اليها . ولذا استعصى على بعض المستشرقين فهم النصوص العربية والوصول

---

(1) الدكتور اسحق موسى الحسيني : علماء الشرقيات في انجلترا من ١٤

إلى أعماقها . وإذا كنا نعزو تجحيط بعض المستشرقين في الدراسات الأدبية العربية إلى عدم فهمهم التام لأسرار البيان العربي ، فإن تجحيط بعضهم في الدراسات الإسلامية التي يقومون بها ويتصدون لها قد يعزى<sup>1</sup> إلى جهلهم بحقيقة الإسلام وفهمه على حقيقته والنفوذ إلى أسراره ، والاحاطة بروحه التي لا يدركها إلا العليم .

ومن تمام أساليب العلم واستكماله أن يبحث المستشرق الموضوع من جميع وجوهه وأن يدرسها دراسة اتصال ، وحيثما لو درس البيئة ، ورآها رأى العين ، فإن البيئة عامل مهم لا يجوز إغفاله مثلا في الحديث عن ظهور الإسلام وانتشاره . كتب بعض المستشرقين عن الإسلام ، ولم يعرفوه إلا من خلال الكتب والمصنفات ، وقد يكون بعض هذه الكتب مما لم يرتفع إلى طبقة الأصول الأولى للإسلام ، أو يكون من تلك المصنفات المشوهة بالضلالات والسيخافات التي تلتصق بالإسلام زورا وسفها ، أو قد تكون تلك المؤلفات من نتاج العقول الإسلامية التي تخلفت عن عصور الانحطاط (١) .

وسأذكر قصة طريفة عن مستشرق وقع في خطأ بدون قصد ، وقد كنت شاهدا لهنـه القصة . فقد كنت أستاذـا زائـرا في معهد الدراسـات الإسلامية بجـامعة ماـكـجيـل بمـديـنة مـونـتـريـال بـكـنـدا في الـعـام الجـامـعـي ١٩٦٣ - ١٩٦٤ . وحضرت محـاضـرة عـامـة أـلقـاـها أـسـتـاذـ أـمـريـكـيـ ، يـعـتـبـرـ فـي مـقـدـمةـ المـسـتـشـرـقـينـ المـعاـصـرـينـ ، وـلـهـ مـؤـلـفـاتـ قـيـمةـ فـيـ التـارـيـخـ الـاسـلـامـيـ ، وـأـلـقـىـ عـدـةـ مـحـاضـراتـ فـيـ الجـامـعـةـ

---

(١) محمد عبد الغنى حسن : الإسلام بين الاصناف والملحوظ ص ١٠ .

الأمريكية بالقاهرة . وأصفه بالانصاف والعمق في الدراسة ،  
وأنفي عنه أي اتهام قد يوجه إليه .

وقف المستشرق المذكور في أوائل شهر ديسمبر ١٩٦٣ يلقي  
محاضرة عن ظهور نظام الخلافة ، ويبدو أنه كان لا يزال متاثرا  
بمصرع الرئيس الأمريكي السابق ( جون كيندي ) ، فقال  
المستشرق : « وبعد وفاة الرسول ، تولى أبو بكر الحكم ، وهذا  
يشبه ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية ، حينما تولى لندنون  
جونسون بعد مصرع جون كيندي ». وجرت العادة في مثل  
هذه المحاضرات العامة اتاحة الفرصة لكل من يريد التعليق  
والتعليق . ولذا انبريت للأستاذ المستشرق لأفند مقالته ، ولاهاجم  
هذا التشبيه الذي ذهب إليه . فقلت له ، انه لا يصح « طلقاً وضيع  
نبي من الأنبياء موضع مقارنة أو تشبيه بأى إنسان آخر ،  
كما لا يجوز تشبيه أبي بكر الصحابي الجليل وأول الخلفاء برئيس  
أمريكي ، مهما بلغ تفوهه أو سلطانه . كما أن طريقة تولية أبي بكر  
رئاسة الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول عليه الصلة والسلام  
الأمريكية ، فقد تولى أبو بكر الخلافة بعد بيعة خاصة في سقيفة  
بني ساعدة ، ثم بيعة عامة في المسجد النبوي في اليوم التالي ،  
وهاتان البيعتان تحققان ما أمر الإسلام به من شورى وديمقراطية .  
كما أن أبياً بكر لم يكن نائباً عن الرسول في رئاسة الدولة الإسلامية  
في حياته الكريمة . هذا بينما كان ( جونسون ) نائباً لرئيس  
الجمهورية ( كيندي ) ولذا تولى الحكم بعد مصرعه . وقد أفضت  
في عرض وجهة نظرى العربية الإسلامية ، المستمدة من واقع  
التاريخ والحقائق ، وقد أبدى الأستاذ الأمريكي المستشرق اعتذاره ،  
وأوضح حسن نواياه ، وذكر أنه إنما كان يريد فقط تقريب الصورة

لعقول الأميركيين المستمعين لحضاراته ، ومعظمهم من غير المتخصصين في التاريخ الإسلامي ، وأن المستشرق لايزال متاثراً بحادث مصر ( كيندي ) الذي هز مشاعر الأميركيين وأثر في نفوسهم .

ومن المستشرقين البارزين الذين لم يسلموا من الوقع في الخطأ ( رينولد الين نيكولسن ١٨٦٨ - ١٩٤٥ ) ، وقد تخرج من كلية ترينتي - كمبريدج ، وقد كان جده من كبار علماء العربية مما أثر في ميله إلى الدراسات الشرقية ، وتعلم العربية على روبرتسون سميث ، والفارسية عن ادوارد براون ، وقد خلف براون في منصبه بعد وفاته . وقدم ( نيكولسن ) إلى المكتبة العربية والاسلامية كثيراً من الدراسات القيمة التي تتصف بالجدية والابتكار والعمق والانصاف . أشهرها التاريخ الأدبي للعرب ، وهو تصنيف للأدب العربي في ضوء التاريخ السياسي والعماني للعرب وال المسلمين ، تتبّعها بتأريخ الأدب الفارسي لبراون ، ويفسّر المقام هنا عن تعداد أبحاث نيكولسن ( ١ ) .

ومن الكتب التي وقع فيها ( نيكولسن ) في بعض الأخطاء ، كتابه ( الصوفية في الإسلام ) الذي استغرق في تأليفه عشرين عاماً . وقد قام الدكتور أحمد الشرباصي بالرد على آراء المستشرق في كتاب بعنوان ( التصوف عند المستشرقين ) وقد عاب على المستشرق ما ذهب إليه من أن الصوفية الإسلامية قد تكونت من تأثيرات خارجية غير إسلامية هي المسيحية والأفلاطونية والبودية ،

---

( ١ ) انظر قائمة كاملة لأبحاث نيكولسن في كتاب ( المستشرقون ) للعقيقى ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

كما عاب عليه اساءاته الى القرآن الكريم ، أو وصفه العبادات الإسلامية بأنها « رسوم ظاهرة » موهبا بذلك أنها لا تؤثر في النفس ، أو عندما يذهب الى أنه « ليس لدى المسلم فكرة ما عن القانون الطبيعي » .

واننا وان كنا نوافق الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى على جميع آرائه ، وعلى تفنيده لأقاويم ( نيكولسن ) ، فاننا أيضا نشعر بالحيرة ونتساءل : كيف وقع هذا المستشرق فى هذه الأخطاء ؟ رغم جهوده الكثيرة وكتبه العديدة وأبحاثه القيمة !!؟ وخاصة أن الدكتور الشرباصى نفسه يقول عن المستشرق : « وقد يكون الدكتور نيكلسون أقل من غيره من المستشرقين فى باب الخطأ أو الكيد للإسلام .. وقد عنى نيكلسون بالدراسات الصوفية عنайه ملحوظة ، فألف فيها ، وأخرج كثيرا من كتب التصوف المشهورة » (١) .

ومن المستشرقين البارزين الذين يشرون حيرتنا أيضا ، بل أثاروا حيرة المستشرقين أنفسهم ، المستشرق الألماني ( شبرنجر ١٨١٣ - ١٨٩٣ ) الذى وضع كتابا ضخما بعنوان ( حياة محمد وتعاليمه حسب مصادر لم تستخدم غالبيتها الى الآن ) ، ظهر فى ثلاثة مجلدات . وقد أعلن شبرنجر أنه كرس نفسه للدراسات الآسيوية ، وقد زار الشرق ، وأقام ١٣ عاما فى الهند ، واطلع على جميع جوانب التاريخ الإسلامى . وقد قام باعداد كتاب ( فهرست كتب الشيعة ) للطوى للطبع ، كما قام بطبع كتاب ( الاتقان ) للسيوطى فى سلسلة المكتبة الهندية ، وعشر على الجزء الأول من

---

(١) الدكتور أحمد الشرباصى : التصوف عند المستشرقين ص ١١ .

كتاب الطبقات لابن سعد في مكتبة خاصة في ( كاونبور ) وعلى أجزاء أخرى منه في دمشق ، وجلب معه من الشرق أكثر من ألفي مجلد منها ١١٠٠ مخطوط عربي انتقلت ملكيتها فيما بعد إلى مكتبة برلين :

وقد عد المستشرق الألماني المعاصر ( بارت ) جهود ( شبرنجر ) في مجالات الدراسات الإسلامية ، ثم عبر عن حيرته وتعجبه من كتابه عن محمد ، فقال : « وكان المتوقع أن يتمكن شبرنجر بما بين يديه من مصادر كثيرة ، من كتابة سيرة محمد لاتدع مجالا للنقد أو الأخذ ، ولكن السيرة التي ألفها خابت الظنون في أكثر من ناحية ولم ترع شروط ومتطلبات التقرير العلمي . فقد ضللته اتجاهه إلى النظر إلى الإسلام باعتباره وليد روح عصره وحمله على التقليل من شأن شخصية النبي ومن أهمية جهوده التاريخية » .

هذه هي شهادة مستشرق مسيحي ، وهو ألماني مثل ( شبرنجر ) ، فماذا نقول نحن الشرقيون المسلمين ؟ ! وبطبيعة الحال ، فإن ( شبرنجر ) لم يكن حسن النية ، ولم يكن بعيداً عن التعصب ، حينما ألف كتابه عن الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد أشرنا إليه ، لنوضح مثالين مختلفين ، مثلاً للاساءة بدون قصد ، ومثلاً آخر للاساءة بعمد وقصد وسبق اصرار .

هذا نقد مستشرق ، لمستشرق آخر . واليكم نقد آخر وجهه المستشرق ( بودل ) إلى قرناه المستشرقين . فقد انتقد كل من تعرض من المستشرقين لكتابة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال إن جميع السير التي دونها مستشرقون ناقصة ، وقد فشلت في عرض موضوعهما من كل الزوايا ، وقد اكتفى المستشرقون

بصورة محدودة منعزلة ، فمن النادر أن تجد الظلال والبيئة . ولذا سافر ( بودلي ) إلى بلاد العرب حتى ينجح في كتابة سيرة للنبي الكريم . وقد انتقد ( بودلي ) ذلك الكاتب الأجنبي الذي ألف كتابا عن محمد ، فظهر من خلال ما كتبه أنه لم يغادر « نيوانجلاند » حيث كان يعمل راعي كنيسة !! (١) .

التمس بعض علمائنا العذر لاختفاء المستشرقين في التحقيق فقالوا : إن الإسفار الأدبية الأولى كانت تنسج نسخاً وكان سوق النسخ رائجاً ، دفع بعضهم إلى الصنعة التجارية فيه ، فوقع تحريف كثير ، وتشوهت الكتابات ، مما يستطع المحقق اليوم بعد طول عهد الكتابة أن يتميزها ، فاستعصت على بعض المستشرقين كلمات ، كما وقع في ذيل المعاجم العربية لدوزي . وكذلك قابلتهم تلك الصعوبة في الشرح على الطريقة الكلامية ، دون معرفة القصد النبوي منها ، كشرح كاترمير الأحداث بالغوغاء . كما واجهتهم تلك الصعوبات أيضاً في المفردات العربية المكتوبة بالحروف اللاتينية التي كثيراً ما لا تفي بحاجة المفهوم العربية ، وفي قواعد اللغة العربية وأصولها وترجمة بعض النصوص (٢) .

(١) محمد عبد الغنى حسن : الإسلام بين الانصاف والمحود صر . ١٠ - ١١ .

(٢) العقيقى : المستشرقون بـ ٣ ص ١١٥٢ .

رَفِعُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْجَنْبَرِيِّ  
أَسْلَمَ اللَّهُ الْفَزُورَ كَسْ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

## تقدير جهود المستشرقين في التاريخ الإسلامي

### صفات ومزايا المستشرقين :

الحق أن مناهج المستشرقين في البحث هي مناهج تتميز بالجد ، وبالدأب على البحث ، والتعقق ، والتحليل ؛ والاستقراء ؛ والاستنتاج والوصول إلى الحكم العام بعد عرض طائفة من الفرديات التي تتشابه في مجموعة من الخصائص يجعلها صالحة لأن تدرج تحت حكم واحد . وبقدر ما في طرائق البحث والاستنتاج من سلامة وحياد تكون الأحكام العامة دائمًا سليمة محايدة بعيدة عن الاجحاف والأغراض .

ولا شك أيضاً أننا مدینون للكثير من المستشرقين بطاقة كثيرة من المصنفات التي أسهمت بنصيب كبير في ثورة الفكر ، وخاصة بعد ترجمتها إلى العربية . فقد أوضحت الكثير من الحقائق العلمية ، وأضافت إلى مكتبتنا العربية العديد من الأبحاث . وقد

يكون للمقليات الغربية المنظمة القادرة على البحث والتحليل والتتبع  
أو في ذلك الطابع الذي تنسى به دراساتهم وأبحاثهم (١) .

ومن مجازين المستشرقين ادخال المنهج العلمي على دراساتنا  
الاسلامية والعربيّة . وهذا المنهج قائم على الاحاطة والموازنة  
والترتيب والاستنباط لبلوغ الحقيقة ، وقد طبقه المستشرقون على  
علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقاً صحيحاً . وقد ساعدهم على تطبيق  
منهجهم العلمي مميزات خاصة ، منها اتقانهم بأمهات اللغات سامية  
كانت أو آرية ، وشخصوا الواحد منهم بلغة أو دين أو علم أو أدب  
أو فن أو سلالة أو عصر أو أديب . وبما أنهم دخلاء على التراث  
الشرقي فقد اصطنعوا التمحيق والدقة فيه ، لعدهم بأن الأخطاء  
الفاشنة والتحريف والتضليل تنال من أقدارهم في أعين الشرقيين  
وتصرف الأنظار عنهم . وكان المستشرقون من دول متعددة ،  
يقرأون ما يكتب في موضوعهم بسائر اللغات ، ويصحح بعضهم  
للبعض الآخر . ومن مميزات المستشرقين أيضاً جلدهم على العمل ،  
وربما ينقضى عمر أحدهم في تحقيق مخطوط أو تصنيف كتاب  
أو موسوعة دون كلل أو ملل (٢) .

يشيد المرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن بجهود  
المستشرقين ، فيقول : « الملاحظ بوجه عام أن ما كتبه المستشرقون  
من الدراسات في بعض عصور التاريخ الاسلامي أو مسائله الجزئية  
أعمق من كتبهم الشاملة ، وإذا كان للمراجع العربية والفارسية  
القديمة المقام الأول والأساسي في دراسة التاريخ الاسلامي ، فمن

(١) محمد عبد الغنى حسن : الاسلام بين الانصاف والتجزء ٦ .

(٢) العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٣ - ١١٤٤ .

الانصاف أن نعترف بأننا لم نحسن الافادة من تلك المراجع الأصلية، حتى اتصلنا بالغرب ، واستطاع الرعيل الأول من المؤرخين المسلمين المحدثين أن يأخذوا عن المستشرقين كثيراً من أساليب البحث العلمي الدقيق . وحسبنا مثلاً أن المستشرقين هم الذين كشفوا لنا عظمة ابن خلدون وما في مقدمته من نظريات اجتماعية سبق بها العلماء الذين ينسب إليهم الغربيون وضع الأسس الأولى في علم الاجتماع .

« ولا ريب في أن بعض المستشرقين لا تلين لهم قناة اللغة العربية بحيث يصبحون في مأمن من سوء الفهم ومجانبة التفسير الصحيح ، وما من شك في أن بعض المستشرقين يعميهم التعصب الديني أو القومي عن الحقائق ، أو يدفعهم إلى قلبها ، ولكن هذا لا يقلل من فضل المستشرقين في العناية بتاريخ حضارتنا ، وفي دفعنا إلى العناية بها ، في أسلوب علمي سليم ، نستطيع بواسطته أن نكمل ما في دراستهم من نقص ؛ أو نقوم ما فيها من عيوب » .

### الاهتمام بالتراث الإسلامي العربي :

لقد أعاد رجال الاستشراق على أصالة بحوثهم أنهم وقع لهم من كنوز التراث الشرقي والعربي وذخائر أفكاره ما لم يقع لأهله وأصحابه . فقد جاء حين على المخطوطات العربية كانت مجهولة القدر عند أصحابها الذين هم أولى الناس بها ، وأحقهم بصيانتها وحفظها ، فانتقلت إلى خزائن الغربيين – فيما انتقل إليهم من التراث الشرقي والعربي – ومن هنا أكبوا عليها ، وعكفوا على دراستها ، وأطالوا البحث فيها ، حتى استقام لهم من ذلك دراسات سبقونا إليها ، وكنا نحن أحق بهذا السبق (١) .

---

(١) عبد الغنى حسن : الإسلام بين الانصاف والمحود ص ٧ .

والتراث العربي جزء من التراث الانساني ، ولعله أكثر أجزائه اتساعاً وتعقيداً وغموضاً ، في أصوله وتأثيره وتفاعلاته وتطوره وأثره ، ذلك لما رافقه من عصبيات قبائل وأنساب وقرشيين وأنصار ومهاجرين ، ومن منازعات الخلافة بين الأمويين والهاشميين ، وانقسام المسلمين إلى سنتين وشيعة وخوارج ، من زنقات شعوبية . كل ذلك ساعد على طمس بعض معالم التراث العربي (١) .

ولذا فقد استفاد التراث العربي حين طبق المستشرقون منهجهم العلمي على هذا التراث ، فقد خلت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم من آثار تلك العصبيات والمنازعات والأهواء ، ولذا كانت آراؤهم علمية خالصة ، وإن لم ترض بعض المسلمين الذين لا يزالون متأثرين بتلك العصبيات القديمة .

ورغم أن الدكتور تمام حسان قد انتقد بعض آراء وأفكار ( ديلاسي أوليري ) في مقدمته لترجمته لكتاب ( الفكر العربي ومكانه في التاريخ ) ، كما رأينا في الفصل السابق من كتابنا هذا ، فإن الدكتور تمام في حكمه على الفرق الإسلامية كان بعيداً عن التعصب لهذه الفرق أو لبعضها ، فيقول (٢) : ولكون مؤلف الكتاب مستشرقًا ينتمي إلى بيئته ، لا هي بالاسلامية ولا العربية ، يشير في نفوسنا دواعي الانتباه حين نقرأ له رأيه في الفرق الإسلامية المختلفة . بل انه يشير انتباهنا كذلك حين يتكلم في أعلام الفكر العربي بروح ليس لها موقف تقليدي من هؤلاء الأعلام ، ولعل ذلك

(١) العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٥ .

(٢) انظر مقدمة كتاب ( الفكر العربي ) ص ١٤ .

من حسنت هذا الكتاب أكثر مما هو من مساوئه ، لأنه يعرض هذه الفرق وهؤلاء الأعلام من زاوية لا تتفق كثيراً لاتباع هذه الفرق والمعجبين بهؤلاء الأعلام ، ولأن المسلمين هنا ينظرون بعين العطف إلى أبناء مذهبهم في الدين ، وبعين الاشتقاق إلى أبناء المذاهب الأخرى ، ومن ثم يصعب عليه عند ارادة البحث العلمي الذي لا يعرف العطف والاشتقاق ، أن يتخد لنفسه موقفاً خلوا من أي منهما .

### المطبع والمجلات والمؤتمرات :

كان المستشرقون أول من أنشأ المطبع الشرقي في بلدان الغرب ، والشرقين الأوسط والأقصى ، وشمال أفريقيا . وقد استواعبت مطبعة ليدن وحدتها حروف عشرين لغة شرقية . ثم تعددت مطبع الجامعات والمكتبات والجمعيات والمراكم الثقافية والعلمية والأثرية ، ونشرت الأمهات من علومنا وأدابنا وفنوننا ، محققة مترجمة مصنفاً فيها ، على أروع ما يكون النشر دقة علمية واتقان طباعة ورونق حروف . وقد ساعد على نشر كتبهم تحمل جمعياتهم ومعاهدهم ومجلاتهم وربيع مؤسساتهم نفقات طبعها (١) .

لقد كانت جهود المستشرقين المؤرخين في نقل كتب التاريخ العربي الإسلامي ، أو تحقيقها ونشرها نثراً علمياً مع الفهارس الدقيقة ، مما لا ينكره إلا جاحد . وهذه الكتب التي حققها ونشروها تدل على جهد عظيم ، وصبر على العمل ، ودقة في الفهرسة ، اللهم إلا بعض ما مأخذ تعود إلى عدم اتقانهم لقراءة النص ، تبعاً لعدم اتقانهم المسنان العربي ، وذلك في حالات قليلة

(١) العقيقي : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٦ .

ومستدركة ، ولكنها لا تنقص بحال من قيمة عملهم الجليل في هذا الميدان (١) .

أما المجالات والدوريات الشرقية فهي تزيد على ثلاثة مجلدات متعددة خاصة بالاستشراق ، وهي منشورة بمختلف اللغات ، وبعضها بثلاث لغات ، وتناول أبحاثها الشرق في لغاته وأديانه وعلومه وأدابه وفنونه ، قد يهمها وحديثها ، وتأثرها وأثرها ومقارنتها بغيرها ، على الأسلوب العلمي الذي عرفناه للمستشرقين ، وتفتح صفحاتها للعلماء الشرقيين ، ولا تكتفى بالباحث بل تتجاوزها إلى نشر المخطوطات والوثائق ، ومحضرات المحاضرات الأستاذة ومصادر الاستشراق ، وتقديم الكتب في الشرق والغرب ، فلا يصدر كتاب حتى يبادر الناقد إلى نقاده نقداً دقيقاً نزيهاً . ولكل مجلة نقاد متخصصون بالموضوعات والمؤلفين والعصور والدول (٢) .

والمستشرقون الألمان منظمون في جمعية تضمهم هي الجمعية الشرقية الألمانية التي تقوم منذ ١٢٠ سنة والتي تجمع المستشرقين الألمان . ولهذه الجمعية منذ ١٩٦١ معهد ألماني للدراسات الشرقية في بيروت مهمته القيام بمواضيع بحث خاصة وعلى تدعيم الصلة بين الاستشراق وبين البلاد العربية ، وملحوظة عمليات الطبع التي تجريها الجمعية في المطبع العربي . وظهور مجلة الجمعية الشرقية الألمانية بانتظام حاملة المقالات العلمية المتخصصة ونقد الكتب في ميادين الاستشراق جميعاً ، وبلغ عدد ما صدر من مجلداتها حتى الآن ١١٥ عدداً . وهناك أيضاً ، عدا المجلة ، مسلسلات نشرية تمولها الجمعية وترعاها ، وهي « دراسات في علم الشرق » و « المكتبة

---

(١) عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب من ٢١٠ .

(٢) العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٨ .

الاسلامية » . ويجد ممثلو الدراسات العربية والاسلامية مجالاً آخر لنشر مقالاتهم ودراساتهم الصغيرة في مجلتين آخريين هما (مجلة الاسلام) ومجلة ( عالم الاسلام ) . بينما تختص ( جريدة المدونات الاستشرافية ) بمناقشة ونقد الكتب المتصلة بالاستشراق . أما مجلة ( اوريينس ) التي ظهرت سنة ١٩٤٨ فهي تنطق باسم الجمعية الدولية لبحوث الشرق ، ولا تعتبر مجلة ألمانية الا بتحفظ . وهنالك مجلة ( الشرق ) التي تختص بأحوال الشرق المعاصر وخاصة أحواله الاقتصادية والتي تخرج عن « اتحاد الشرق الأدنى والأوسط » في هامبورج (١) .

وتجدر بنا أن نذكر أقدم مجلة أصدرها المستشرقون ، واهتمت بالدراسات الاسلامية والعربيـة ، وهي المجلة الآسيوية التي يرجع الفضل في صدورها إلى البارون الفرنسي دـى سـاس ( ١٧٥٨ - ١٨٣٨ ) (٢) ، الذي يعتبره كثير من المستشرقين أباً لهم ورائدهم ، وقد عاصر الثورة الفرنسية ونابليون وحملته على مصر . وقد أنشأ في سنة ١٨٢٢ ( الجمعية الآسيوية ) وأنشأ مجلتها الشهيرة ، وأصبح رئيساً لتحريرها ست عشرة سنة . وقد اختلف العلماء من أوروبا قاطبة عليه ، وأخذوا عنه ونظموا الاستشراق في بلدانهم على نمطه بفضلـه (٣) .

بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية ( ١٨٧٣ - ١٩٦٤ ) ٢٦ مؤتمراً ، ضم الواحد منهم مئات العلماء من أعلام المستشرقين

(١) بارت : الدراسات العربية والألمانية من ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) وهو غير ( ديلاسي أوليرى ) المستشرق البريطاني .

(٣) المستشرقون ج ١ من ١٨٠ .

والعرب وال المسلمين والشرقيين ، أسهموا فيما بينهم في أقسامه الأربع عشر ، عن آسيا وأفريقيا ، وتناولوها بالمحاضرات والابحاث والنظريات والمقترنات . ثم نشروها في مجلدات للاهتماء بها كنظم ومناهج ووسائل ، ثم أصبحت مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والإقليمية ، أصولاً وامهات وأسانييد للباحثين (١) .

ومن أشهر هذه المؤتمرات ، مؤتمر الثقافة الإسلامية الذي نظمته جامعة برنستون ومكتبة مجلس الشيوخ الأمريكي . وعلق الأستاذ محمد خلف الله أحمد (٢) الذي حضر هذا المؤتمر على أعماله فقال : تبين لي ، كما تبين لزملائي ، أن الأمم الإسلامية تتفق كلها في الاعتزاز بقواعد دينها وتراث حضارتها ، ولكنها تفترق في موقفها من بعض المعضلات التي يشيرها الاجتماع ونظم الحياة في الدولة الحديثة ، وتفترق كذلك في أساليب فهمها لأسرار التشريع ودوراته مع المصالح العامة .

والظاهرة أن عنانة أمريكا وأوروبا بالاسلام قد أخذت في السنوات الأخيرة شكلًا جديدا نتيجة لشعور الغربيين بأن العالم ينقسم الآن إلى فريقين ، أحدهما ديني ، والآخر لا ديني ، وأن واجب أهل الديانات السماوية أن يقفوا متكاففين في وجهه الالحاد (٣) .

(١) المستشركون ج ٣ ص ١١٤٨ .

(٢) الاسلام والحضارة ص ٢١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣ .

## دائرة المعارف الإسلامية :

تمثل دائرة المعارف الإسلامية عملاً مشتركاً واسع النطاق ، اشتراك فيه عديد من المستشرقين ، فهي إذ تمثل التعاون العالمي ، وقد استغرق اصدارها عدة سنوات ، وبذل فيها كثير من الجهد العلمية . وقد اشتراك في التخطيط لها اشتراكاً حاسماً المستشرق (سنوك هور جرونيه ) ، وقام على التنفيذ خلفه على كرسى ليدن المستشرق (أرنست يان فينسينك ١٨٨٢ - ١٩٣٩ ) ، واشتراك لفيف من المستشرقين في اعداد هذه الدائرة . وساهم الألمان فيها مساهمة فعالة ، فقد اشتراك في نشر الجزء الأول من الدائرة ، الذي تم وظهر عام ١٩١٣ ، من الجانب الألماني أرتوش شاده (١٨٨٣ - ١٩٥٢ ) وريشارد هرتمان (١٨٨١ - ١٩٦٥ ) . وفي الجزء الثاني الذي ظهر عام ١٩٢٧ هانس باور (١٨٧٨ - ١٩٣٧ ) ، واشتراك ( فيللي هيفننج ) في مسؤولية نشر الجزء الثالث والجزء الرابع والمجلد التكميلي ، تلك المجلدات التي جرى العمل فيها في وقت واحد وخرجت في الأعوام ١٩٣٦ و ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على التوالي .

ظهرت « دائرة المعارف الإسلامية » في المرة الأولى في ثلاثة طبعات ، طبعة ألمانية ، وطبعة إنجليزية ، وطبعة فرنسية . وكانت المقالات في غالبيتها بقلم المتخصصين في موضوعاتها ، وكانت تترجم من لغتها الأصلية إلى اللغتين الآخرين . وقد بدأ بعد الحرب العالمية الثانية الاعداد لطبعة جديدة من دائرة المعارف يشتراك فيها أيضاً لفيف من العلماء الألمان المتخصصين ، وبذلت تظاهر منذ عام ١٩٥٤ ، ولكن في طبعتين فقط ، إنجليزية وفرنسية (١) .

(١) بارت : الدراسات العربية والاسلامية ص ٣٨ .

واهتم المستشرق البريطاني المعاصر المعروف السير هاملتون جيب (المولود عام ١٨٩٥) بابراج دائرة المعارف الإسلامية الموجزة باللغة الانجليزية ، فصدرت في لندن سنة ١٩٥٣ ، واشترك مع (جيب) المستشرق الهولندي (كرامرز) . ولأنه بأسا في الحديث عن (جيب) و (كرامرز) في سطور قليلة .

أما (جيب) فهو من مواليد الاسكندرية في مصر (١٨٩٥) ، وهو خليفة هرجليلوت في أكسفورد ، ونضم المجمع العلمي العربي في دمشق ، والمجمع اللغوي في القاهرة عند تأسيسه ، وهو يكتب العربية كأداتها ، وقد درس على المستشرق الكبير (توماس آرنولد) ، ثم أصبح أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن (١٩٣٠ - ١٩٣٧) وفي أكسفورد (١٩٣٧ - ١٩٥٥) وفي هارفارد منذ ١٩٥٥ ، ومديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط (١٩٦٢) وله كثير من المؤلفات والأبحاث القيمة (١) .

أما (كرامرز) فقد ولد في سنة ١٨٩١ وأصبح ترجمان السفارة الهولندية في الاستانة (١٩١٥ - ١٩٢٢) ، ثم انتدب للمساعدة على نشر مطبوعات الأمير يوسف كمال في مجموعته (آثار أفريقية ومصر) سنة ١٩٢٥ . وعين أستاذًا للتركية والفارسية في جامعة ليدن ، خلف (فنسيينك) على كرسى العربية فيها (١٩٢٩) ، وله كثير من المؤلفات القيمة يضيق المقام عن ذكرها (٢) . وله مجموعة مقالات في الجزءين الثاني والثالث من دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر قائمة بمؤلفات (جيب) في كتاب (المستشرقون) ج ٢ ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

(٢) انظر قائمة بمؤلفات (كرامرز) في كتاب (المستشرقون) ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١ .

يُمتدح الأستاذ كرد على (١) جهود المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية ويرى إلا يعيّبها إلا الأبحاث التي ساهم بها الأب (لامانس) ، فيقول : من الكتب المهمة التي نشرت في مدينة (ليدن) الهولندية بلغات العلم الثلاث : الفرنسية ، والألمانية ، والإنجليزية ، كتاب « دائرة المعارف الإسلامية » وتعد هذه الدائرة ، بما ضممت لها من مؤازرة أعلام الباحثين من علماء المشرقيات ، من أجمع ما كتب على الإسلام وأصول أهله وبلدانه وتقويمها . وهو عمل جليل ، لم يدخل - ويا للأسف - وجيه الجميل من تشويهه قليل أتاه ذلك الذي ينظر إلى الإسلام أبداً بعيون البغيض ، وأعني به (لامانس) ، فأساء إلى الحقيقة في مقالاته ، ظاناً أن هذه الدائرة أيضاً بوق دعائية مذهبية ، وأن على الداعية أن يحتال لبث دعوته ، لوحان الواجب عليه في عمل آخر .

### هل نهمل أبحاث المستشرقين في المستقبل :

قام المستشرق الألماني المعاصر (بارت) (٢) بتقديم جهود المستشرقين في الماضي ، ثم حاول أن يرسم صورة لمستقبل الاستشراق ، فقال : إذا نظر الإنسان نظرة إلى الوراء إلى المنشورات الكثيرة التي صدرت في العقبة الأخيرة في ميدان الدراسات الإسلامية والعربية ، رأى ضخامة ما أنجز من عمل . ويفحق للإنسان أن يفرح بما تم ، ويختبر الإنسان أن أخذه الغرور والزهو ، والأحرى به أن يتواضع ويفكر في حدود المعرفة . فكل دراسة في هذا الميدان هي في حقيقتها جزء ضئيل في كل كبير ،

(١) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣١ .

(٢) الدراسات العربية والألمانية ص ١٠٧ .

ويتبغى على العالم أن يعيid النظر في موقفه من حين لآخر . ولا شك أن البحث العلمي الدقيق العميق وحده هو الذي يأخذ بيذنا إلى أمام . ونحن عشر المستشرقين نتمتع بميزة الجلوس في مكان ذي نافذة نطل منه على الشرق الساحر الجذاب . والآخرون على حق عندما ينتظرون منا أن نعرفهم من حين لآخر بالعالم الذي نحيط به علما .

وتساءل الأستاذ نجيب العقيقي في كتابه القيم (المستشرقون ) (١) عن مدى حاجتنا إلى جهود المستشرقين ، ثم قال : أما القول في تراثنا بأننا أهله وأصحابه ولا يجوز لنا بعد اليوم أن نتخلى عنه لسوانا من الأجانب الغرباء ، فقول مردود لأننا يحرمنا من حق دراسة التراث الإنساني ؛ ولأولئك الأجانب الغرباء نصيب فيه . ويسقط ، في الوقت نفسه ، عن تراثنا صفة الإنسانية في تأثره بالثقافة العالمية وأثره فيها من اليونان والفرس والرومان إلى أوروبا وأفريقيا وآسيا حتى الشرق الأقصى . ولو لا جهود المستشرقين لما أحطنا به أو اهتمينا إلى كل عظمة أسلفنا وحققنا توارييخ أولى دولنا ، وما دامت ثقافتنا عالمية ومن سماء الشرق انبثقت الأديان الثلاثة المنزلة ، حق لعلماء العالم تمحيصها لمعرفة مصادر حضارتهم ، وتقسيمهم صلات بلدانهم بالشرق وبحالته العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحديد تاريخهم منه في ضوئها .

ويرى المرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن ضرورة الاستفادة من أبحاث المستشرقين ، فيقول : « لسنا نظن أن باحثا

منصفاً يستطيع أن ينكر ضرورة الالام بكل ما يكتب المستشرقون، لأن أكثر ما يكتبوه دقيق ومنظم، وفيه كثير من مزايا البحث العلمي الصحيح . أما عيوب التعصب فمن السهل أن ندركها ونحدّر شرها » .

هذا بينما يرى الأستاذ محمد خلف الله أَحمد ، مدير معهد البحوث والدراسات العربية ( التابع لجامعة الدول العربية ) ضرورة اعتماد الباحثين على أنفسهم ، والكف عن تقليد المستشرقين ، فيقول (1) : من واجب المسلمين أن يدرسوا ويفهموا موقف الغرب من الإسلام ، وأن يأخذ علماؤهم زمام الأمور بيدهم ، فقد انقضت المرحلة التي كنا نقف فيها من المستشرقين برقف المقلد ، وقد تهيات لنا سبل البحث والتحقيق ، التي كانت مسالكها وعرة علينا قبل النهضة العربية . وطبعاً الأشياء تقضي أن يكون علماء المسلمين أعرف بأسرار دينهم ورماميته ، وأقدر على تفسيره وتطبيقه ، وأعلم بما يحقق رسالته في حضارة الشرق والغرب .

ورغم تأييدهنا لرأي أستاذنا الكبير الفاضل محمد خلف الله أَحمد ، إلا أننا لن نستطيع تجاهل أصحاب المستشرقين أو اهمالها . فلا زالت الدول العربية والإسلامية توفرد أبناءها لدراسة الماجستير والدكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية ، ولا زالت كتب المستشرقين تغزو الأسواق العربية ، بلغاتها الأصلية أو ترجماتها العربية ، وهي كتب أنيقة في طباعتها ، جميلة في تبويبها وعرضها ، ولا زالت المجلات والدوريات الأجنبية تصل إلى جامعاتنا ومعاهدنا العربية . ولا تزال هناك بعض الموضوعات ، وإن كانت قليلة ،

(1) الإسلام والحضارة ص ٢٣ .

لا نجده فى كتبنا العربية ما يسد الفراغات الموجودة فعلا ، كما أن بعض كتبنا العربية فى هذه الموضوعات لا تتميز بالعمق أو الجدية التى تتصف بها غالبا كتب المستشرقين .

وهما كان الرأى ، فقد تضاءلت حركة الاستشراق ، كما أوضحنا فى الفصل الثانى عند حديثنا عن مراحل الاستشراق ، واتجه معظم المستشرقين نحو الدراسات الأفريقية والآسيوية ، بدلا من الدراسات العربية والاسلامية ، نتيجة ظهور علماء وباحثين عرب و المسلمين أنجحوا كثيرا من الأبحاث والدراسات المستفيضة القيمة التى جعلتنا فى غير حاجة إلى بضاعة فكرية مستوردة . كما أن انتهاء الاستعمار من الشرق العربى ، جعل الاستشراق يتوجه اتجاهها علميا بحثا بعيدا عن الدوافع الاستعمارية القديمة . كما أن العرب والمسلمين قد أصبحوا من الثقافة والوعى ما يجعلهم يميزون بين الغث والسمين ، والطيب والخبيث ، ويفطنون إلى الأعيب المستشرقين أو مكائدتهم ، فلم يعد هناك مجال لها بعد ، ولكن ، ورغم ذلك ، فإن أبحاث المستشرقين لا تزال تكون جانبًا كبيرا من مكتباتنا العربية الاسلامية ، وان ( رفوف ) مكتباتنا العامة تزخر بالآلاف من أبحاثهم ، التى أصبحت جزءا من تاريخنا الفكري ، ومرحلة من حياتنا الثقافية ، لا يمكننا الغاءها بحرة قلم ، أو بكلمات حماسية . ولكن من مصلحتنا أن تظل هذه الأبحاث موجودة وقائمة إلى جانب أبحاث العلماء والمؤرخين والمفكرين العرب ، ثم نقول لهؤلاء وهؤلاء ، إنما البقاء للأصلح .

## شِهْر س

٥	تقديم
٧	مقدمة
١١	<b>الفصل الأول</b> : تعريف بالمستشرق
٢٢	من هو المستشرق
٢٥	<b>الفصل الثاني</b> : مراحل الاستشراق في التاريخ الإسلامي
٥٣	<b>الفصل الثالث</b> : دوافع الاستشراق
٩٧	<b>الفصل الرابع</b> : تصنيف المستشرقين
١٢٣	<b>الفصل الخامس</b> : تقويم جهود المستشرقين في التاريخ الإسلامي
١٣١	دائرة المعارف الإسلامية

رَفِعٌ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبَخْرَيِّ  
الْمَسْكِنِ اللَّهُ لِلْفَرْوَانِ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

## صلوات من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محاكمة التاريخ  
د. عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر      اعداد رشوان محمود جابر الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة  
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة  
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى  
عليه عبد السميح
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر  
لدى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي  
د. عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتى لازمة الحياة الفكرية  
د. على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل  
د. محمد أنبيس
- ١٠ - توفيق ديب ملحمة الصحافة الحزبية  
محمود فوزى

١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية  
شكري القاضي

١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير  
د. نبيل راغب

١٣ - أكنوبية الاستعمار المصرى للسودان  
د. عبد العظيم رمضان

١٤ - مصر فى عصر الولاه  
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي  
د. على حسن اخربوطلى

### العدد القادم :

فضول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر  
د. حلمى احمد شلبي

رقم الایداع بدار الكتب ١٩٨٨/٣٣٢٠

---

ISBN - ٩٧٧ - ١ - ١٧٥١ - X

رَفِعُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْجَنْبَرِيِّ  
أَسْلَمَ اللَّهُ الْفَزُورَكَسَّ

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

رَفِعَ

بعن الْرَّحْمَنِ الْجَنَّى  
الْمُكَرَّرِ لِلَّهِ الْفَرَوْكَسِ  
www.moswarat.com

من المعروف أن تاريخ مصر جزء لا يتجزأ من التاريخ الإسلامي ، ومن هنا فقد شغلت مصر جانبا هاما من اهتمامات المستشرقين ، توافد الكثيرون عليها ، خصوصاً منذ الحملة الفرنسية على مصر ، التي أصطحبت معها عدداً كبيراً من العلماء المستشرقين المتخصصين في كافة فروع المعرفة ثم في عهد محمد علي الذي توافد فيه على مصر عدد كبير منهم ومن هنا كان طبيعياً أن يهتم الكتاب بالاستشراق في مصر في إطار اهتمامه بالتاريخ الإسلامي العام .